الدكتور عبد السلام التونجي

الإيمان بالأنبياء
والرسل والنبوة والوحي





WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

اهداء ٢٠١٣
جمعية الدعوة الاسلامية العالمية
ليبيـــــــــــــــــا

الإيمان
بالأنبياء والرسل
والنبوة والوحي

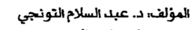
د. عبد السّلام التونجي

الإيمان
بالأنبياء والرسل
والنبوة والوحي



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique

المؤلف: د. عبد السلام التونجي



الإيمــان بالأنبياء والرسل والنبـوة والوحي



منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

طريق السواني - طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

هاتف: 65 _ 4808461 - بريد مصور: 4800293 - ص.ب: 2682 طرابلس

E-mail: Society@the-wics.org

سنة الطبع: 1375 من وفاة الرسول ﷺ - (2007) مسيحي

الرقم المحلي: 7427 / 2006 دار الكتب الوطنية - بنغازي

الرقم الدولي: ردمــــك: ISBN: 9959 - 28 - 052 - 7

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

[الأنفال: 24]

صدق الله العظيم

لا عقيدة إلا بالعقل، ولا عقل إلا بالإيمان، ولا إيمان إلا بالهداية، ولا هداية إلاّ بالله ورسوله.

إني رأيت أنه لا يكتبُ إنسَان كتَاباً في يومِهِ إلاّ قال في غَدِهِ: لو غُيّر هذا لكان أحسن، ولو زيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدم هذا لكَان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمَل. وَهَذا من أعظَم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

المقدمــة

العقل والهداية والرسل:

كل شيء في هذا الوجود له حقيقة نصل إليها عن طريق المعرفة، سواء كانت هذه الحقيقة قيمة مادية أو معنوية، طبيعية كانت أو ما وراء الطبيعة، ولا شك أنه للوصول إلى هذه المعرفة، لا بد من وسيلة نعمل بها لإدراك تلك الحقيقة والحكم عليها، هذه الوسيلة هي العقل، وهو المعيار لفيصل التفرقة بين الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين الخطأ والصواب، ومع ذلك، فإن هذه الوسيلة هي مدار الوصول إلى يقين ما، كما أنها قد تكون مداراً لهدم هذا اليقين بالأدلة العقلية نفسها.

هذا وإذا كان العقل له دوره الهام في إقامة الحضارة المادية، وخاصة في العلوم الكونية، فإن دوره يبقى في عالم الإلهيات قاصراً ومعطياً لظنّيات قد تصل إلى اليقين، وقد لا تصل، ولهذا فإن العقل وحده يبقى عاجزاً في مجال العقائد والأخلاق عن الوصول إلى يقين مطلق، وبالتالي كان لا بد من عامل آخر للوصول به إلى اليقين المطلق، هذا العامل هو الهداية.

قال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾[1].

وقال:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[2].

لهذا أرسل الله رسلاً إلى عباده متتابعين الواحد تلو الآخر هادين للحق وداعين إلى الصراط المستقيم للاعتصام بحبل الله قال تعالى:

﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[3].

هؤلاء الرسل الكرام أرسلهم الله مبشرين ومنذرين قال تعالى:

﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[4].

وقال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[5].

هؤلاء الرسل أرسلوا لإرشاد الناس ودعوتهم إلى الحق، وإقامة صرحه، تبياناً لهم بأنه من رب الناس، وبأمر من مالك الناس، هذا الحق هو فيصل التفرقة بين الكفر والإيمان.

﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

---

(1) سورة الحج، الآية: 8.

(2) سورة لقمان، الآية: 21.

(3) سورة آل عمران، الآية: 101.

(4) سورة النساء، الآية: 165.

(5) سورة الإسراء، الآية: 15.

بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1].

وعلى هذا نستطيع القول إن معرفة الحق لا تقتصر على العقل إذ العقل وحده غير كاف إلى هذه المعرفة، فلا بد لها إذن من عنصر الهداية، والهداية أمر من الله، أبانه للناس جميعاً، عن طريق القرآن، فالقرآن هو الوحي المنزل على رسول الله ﷺ جاء هادياً للعقل وهو النور الذي يكشف الظلمات.

هذا النور هو الأساس للدين الإسلامي، وهو الرائد للعقل في جميع المسائل سواء كانت طبيعية أو كانت مما وراء الطبيعة، كما أنه هو الهدف للهداية لتحقيق العقيدة به وهي الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقضاء، الذي يقتضي الإيمان بالغيب الإلهي، طاعة واستماعاً لأمر الله، واتباعه، قال تعالى:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

هذه الهداية هي النور الذي جعله الله هادياً لمن هداهم فحبب إليهم الإيمان وأرشدهم إلى طريق الخير، وأبعدهم عن طريق الفسق والفجور والعصيان.

قال تعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3].

فمن هداه الله فقد أنعم عليه بفضله بالإسلام وهي منّة من الله سبحانه وتعالى:

---

(1) سورة الكهف، الآية: 29.

(2) سورة الزمر، الآية: 17 ـ 18.

(3) سورة النور، الآية: 40.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[1].

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾[2].

وإذا كان الإيمان هو الإسلام فإن هذا الإسلام هو دين الله وهو علم وعمل هذا الإيمان يحتوي العقيدة ويستوعبها، وهي الأصول التي تقوم عليها شريعة الإسلام، وتنبثق منها فروعها، وتتجسد بالعمل الذي هو امتداد للإيمان والعقيدة معاً.

هذا الإيمان يتمركز فيما يلي:

1 ـ معرفة الله ومعرفة أسمائه.

2 ـ معرفة ما وراء الطبيعة وما فيها من قوى الخير المتمثلة في الملائكة، وقوى الشر المتمثلة في إبليس وجنوده، ومعرفة ما في هذا الكون من عوالم، من جن وأرواح.

3 ـ معرفة كتب الله التي أنزلها على رسله لتميز الحق من الباطل، وتمييز الخبيث من الطيب، والخير من الشر، والحلال من الحرام، والحسن من القبيح.

4 ـ معرفة الأنبياء والرسل قادة وروداً للهدى إلى الحق والصراط المستقيم.

5 ـ معرفة اليوم الآخر والبعث، والثواب والعقاب، والجنة والنار.

6 ـ معرفة القدر خيره وشره وما يسير عليه نظام الكون في سلوكه.

هذه العقيدة لا تبديل ولا تحوير لها، فهي قائمة في كل زمان ومكان، كما أنها لا تتبدل بالأزمان والأقوام، فهي عامة وخالدة للبشر تحقق لهم السلوك

---

(1) سورة الحجرات، الآية: 17.

(2) سورة الحجرات، الآية، 7 ـ 8.

الأمثل لمصلحة الفرد والمجتمع، وترتفع بالإنسان إلى ما فيه خير البشرية جمعاء، بغية تحقيق العدالة الاجتماعية، عن طريق اتباع المنهج الذي أنزله الله لعباده في كتبه على رسله، ليكون للناس مرشداً وهادياً إلى سواء السبيل، وليحقق الكمال الإنساني والاجتماعي عن طريق هؤلاء الرسل الذين هم المثل الأعلى للتحلي بأخلاقهم وسلوكهم.

هذه العقيدة بمقتضى الإيمان في شموله، هي الروح التي يحيا بها البشر، وهي النور الذي يمشي به الناس.

قال تعالى:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (1).

فإحياء الناس وهدايتهم بالنور إذاً إنما يتم عن طريق المنهج الذي أنزله الله على رسله، فمهمة الرسل الذين بعثهم الله مبشرين ومنذرين، إنما يمشون في الناس عارضين على الناس العقيدة التي أنزلها الله، ليوقظوا عقول البشر نحوها لإعمال الفكر والتدبر في آيات وملكوت السموات والأرض، غارسين تعاليم الله في نفوسهم، موجهين أفكارهم إلى التأمل فيمن خلق السموات والأرض، لينقلوا الناس من الشرك إلى الإيمان، ومن الضلال إلى الهدى، داعين إلى الإيمان بالله، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر، ليعم العدل، والإحسان ويقضي على الفحشاء والمنكر والبغي، تلك هي عظة الله وسبيله إلى الرشاد إليه، وقد تمت هذه الرسالة على يد المرسلين، حيث جاء خاتمهم محمد ﷺ فأقام مؤسسة التوحيد بالعقيدة التي تستمد قدسيتها وتعاليمها من كتاب الله وسنة رسوله، بهدى القرآن الذي هو رائد العقل، تبعا لمنهج الفطرة التي فطر الله الناس عليها فالدين الذي جاء به محمد ﷺ كان هادياً للعقل في جميع أركان

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 122.

العقيدة الإسلامية، التي انتظم المجتمع بها، وسعدت الإنسانية فيها، إذ العقل وحده لا يمكن أن يكون مستقلاً بنفسه عن هداية الله، وإلاّ لما وصل إلى نتيجة مطلقة، لأن الناس في عقولهم مختلفون وفي أفكارهم متفرقون متنازعون، لا ينتهي بهم الأمر إلى الانسجام أو الطمأنينة حول فكرة واحدة، لأن العقل وحده قد ينحرف نحو الزيغ والتشابه وابتغاء الفتنة، أو ابتغاء التأويل فيما ورد في كتاب الله، قال تعالى:

﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [1].

هذا وقد كان لاختلاف الرأي الأثر في نشوء المذاهب المختلفة من جراء تحكم العقل فيما يعجز عن إدراكه، والذي أدى إلى العدول عن منهج الأنبياء، مما أدى هذا إلى التحول عن مفهوم الإيمان بالفطرة والدين إلى مفاهيم فلسفية جدلية انبثقت عنها مدارس مختلفة كل واحدة تستأثر بالحق وتدعي خَطَلُ الرأي في غيرها، تعددت بذلك المدارس، كمدرسة أهل الحديث، ومدرسة الأشاعرة، ومدرسة الماتريدية، ومدرسة المعتزلة، ومدرسة الشيعة، إلى غير ذلك من المدارس التي تفرق فيها الناس شيعاً وأحزاباً، منصرفين عن فهم روح العقيدة الإسلامية الفطرية نتيجة لأعمال العقل الصرف، وبهذا لا يمكن الاعتماد على العقل وحده، لأن العقل وحده لا يمكن أن يكون هو الأساس في العقيدة: إذا هذا المنهج أدى بطبيعته إلى انقسام المسلمين، وتزعزع العقيدية في نفوسهم، فضعف الإيمان في القلوب، وابتعدت عن العقل، مما أفقد الناس السيطرة على سلوكهم وتصرفاتهم، ولم يعد للإيمان سلطان عليها، وهذا ما أدى إلى تمزيق وحدة الصف الإسلامي، في الأسرة والمجتمع، وفي الدولة، وأخذ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 7.

الضعف والانهيار يعتري معظم القيم الحياتية والنفسية والأخلاقية، ما أدى إلى ابتعاد الأمة الإسلامية عن قيادة الأمم، وهداية الشعوب، بحيث أضحت موطئاً للغزو الاستعماري الفكري والاقتصادي والسياسي، لهذا كان لا بد من العودة إلى العقيدة تبعاً لمفاهيم القرآن ،وهدايته، وهو الدواء الناجع لإعادة مجد الإسلام وعزته ورفعته.

فالقرآن إذن هو الهادي للعقل لا تناقض ولا تشكك فيما جاء فيه، لأنه هو الذي أنزله الله على رسوله هاديا ومبيناً، وما على العقل إلاّ اتباعه دون تردد أو ارتياب، وهو الحق لا ريب فيه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وإذا كانت هذه خصائصه وهي مسلم بها، فمن البديهي إذاً أن يكون الوحي قد نزل لتحقيق الكمال والسعادة للإنسانية جمعاء، فالدين على هذا الأساس هو الهادي للعقل، وما على العقل إلاّ الخضوع والخشوع للوحي الذي أنزل من عند الله:

﴿أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

إذن فالوحي إذ نزل من عند الله على الرسول ﷺ فمن البديهي أن لا يحتكم إلى العقل وحده، بل إن من مقتضى العقل التسليم به، لأن الرسالة السماوية لا تحتمل الشك أو إخضاعها لأدلة عقلية بحتة تتطلب براهين مادية، فهي رسالة تعتمد الإيمان، كما ولا تحتمل الكذب بل يقينها التصديق باعتبارها منزلة من الله على رسوله، ليتبعها الناس ويخضعون لها، ويخشون الله فيها، بهدى الإيمان دون حرج أو شك أو تردد، وهذا هو عين الإيمان.

قال تعالى:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[2].

(1) سورة هود، الآية: 1.

(2) سورة النساء، الآية: 65.

فالوحي إذاً جاء من عند الله هادياً للعقل ورائداً له فيما يدلي به، لاتباعه والعمل به إنه تنزيل من حكيم حميد، وبديهي أن يكون كذلك وإلى هذا يشير «أبو سليمان المنطقي» إذ قال إن الشريعة الإسلامية مأخوذة عن الله عز وجل بوساطة السفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحي، وباب المناجاة وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه، ولا بد من التسليم المدعو إليه والمنبه عليه وهنا تسقط (لم)؟ ويبطل (كيف)؟ ويزول (هلا)؟ وتذهب «لو وليت في الريح! ولو كان العقل يكتفي به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ـ على أن منازل الناس متفاوتة في العقل، وأنصباؤهم مختلفة فيه، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل، كيف كنا نصنع، وليس العقل بأسره لواحد منا؟ فإنما هو لجميع الناس ـ ولو استقل إنسان واحد بعقله في جميع حالاته، في دينه ودنياه، لاستقل أيضاً بقوته في جميع حاجاته، في دينه ودنياه، ولكان وحده يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه، وهذا قول مردود ورأي مخذول[1].

وعلى هذا نجد أنه ما دامت العقول متفاوتة، فإن الذي يرتضيه عقل شخص ما، قد ينكره عقل آخر، لهذا فمن غير المعقول أن يتدخل العقل في الدين وإلاّ لاختلفت مفاهيم الدين باختلاف العقول، وادعى كل واحد أن رأيه هو الحق، وأن ما عليه رأي غيره هو الباطل، وبهذا تختلف المفاهيم وتفسد العقائد وتضطرب المدلولات، ويتبع كل واحد هواه، فتتفرق الأمة وتفسد مصالحها، لهذا كان من البديهي أن يكون الدين هادياً للعقل، وإلاّ لضل العقل ضلالاً بعيداً، وعجز عن الوصول إلى كنه الحقيقة، وخاصة في العقائد والمبادئ الأخلاقية والتشريع بأصوله وفروعه.

وهكذا فإنه من مقتضى طبيعة الأمور الإنسانية، وما ينبغي أن تسير عليه، أن نسلم لله في كل ما يتعلق بالدين عقيدة وشريعة وأخلاقاً، لأن الإنسان منذ

---

(1) القفطي ـ أخبار العلماء ـ بأخبار الحكماء.

وجد، وجدت معه الروح التي هي من أمر الله، وهو الوحي الذي يرشده ويهديه. ويخط له المبادئ، ويوضح له القواعد في كل ما يصل إليه تفكيره البشري، وخاصة في مسائل ما وراء الطبيعة التي تريد الإنسان أن يصل إلى سبر كنهها وغاياتها، ويعرف علتها وحكمتها، لهذا فقد بقيت أمور عالم الغيب مستورة ومحجوبة عن العقل، لا يكشف سرها وكنهها إلا لمن أذن الله له بذلك من نبي أو رسول.

هذا وإذا كان موضوع دراستنا في هذا الكتاب الإيمان بالأنبياء والرسل، فإننا سنفرد كتاباً خاصاً للإيمان بعالم الغيب والقضاء، وهذا من أهم البحوث التي لا يمكن أن يدركها العقل يقيناً اعتماداً على براهين حسية، لهذا كان لا بد من التسليم بها تسليماً يعتمد العقيدة والإيمان، لأن عالم الغيب إنما هو ما وراء المادة ووراء الكون، وهو الميدان الذي يعجز به العقل عن إدراكه، لأنه لا يقع تحت الحس، كما أنه ليس للحواس قدرة على إدراكه، وليس لها عليه من سبيل قال تعالى:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [1].

فالانصراف عن عالم الغيب والوحي إلى الفكر الإنساني التماساً للدليل إنما هو انصراف عن علم إلى جهل، وتفرقة وضلال للفكر، وانصراف من الوحدة في العقيدة إلى التشتيت والتشعب، وهذا ما لا يتفق مع مفاهيم وأسس العقيدة الإسلامية.

ولا شك أن وحدة العقيدة، ووحدة الأخلاق تبعاً لمفهوم الدين والإيمان لهي من أهم العوامل الشاملة لتوحيد المؤمنين وتوجيههم نحو الوحدة، والإخاء الإسلامي، إذ المؤمن أخ المؤمن «يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فرائد الدين على هذا الأساس الوحدة والإخاء. لأنه دين لتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته، فهو

(1) سورة الجن، الآية: 26 ـ 27.

إذن دعوة إلى الإيمان بمنهج الإيمان ذاته، أما اعتماد منهج العقل وحده فهو اعتماد للنزاع والاختلاف تبعاً لاختلاف العقول، وهذا ما يدعو إلى التفرقة والتفرقة ليس لها في دين الله مكان.

وإننا في بحثنا في الإيمان بالرسل الذي خصصنا له هذا الكتاب سنعتمد معيار الهداية، ولا نغفل العقل والنقل في استقصاء الحقيقة، ذلك أن الإيمان بالرسل هو من أركان العقيدة الإسلامية ، وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة حول هذا الركن، ويبدو أن أهمية هذا البحث تتم بالرسل والأنبياء لأنهم الوسيلة الوحيدة بكافة أركانها ومن هنا كان الاهتمام بدراسة ظاهرة النبوّة والأنبياء والرسل الذين هم عماد الدعوة وطريقها في الهداية إلى سواء السبيل، كما أن الوحي المنزل عليهم، وهو مضمون الرسالة، مما يقتضي الإيمان بالأنبياء والرسل والوحي وما تم على أيديهم من معجزات تأييداً لرسالاتهم.

وهي المواضيع التي حاولنا بحثها في هذا الكتاب بأسلوب علمي مبسط تفهمه العامة والخاصة سائلين المولى أن يجعل هذا العمل لوجهه الكريم وأن يعم نفعه للجميع والله من وراء القصد.

الدكتور عبد السلام التونجي

النـــبوة والأنـبيـاء
والرسل والرسالة

الفصل الأول

ظاهرة النبوة والرسالة وخصائصها

من المسلم به أن العقيدة بمفهومها الشمولي ومدلولها، إيمان وعقل، على أن هذا الإيمان لا يقتصر على تحقيق المعرفة بالله دون عمل، بل لا بد أن يقترن العمل مع هذه المعرفة، إذ مقتضى العقيدة اتباع السلوك المنهجي الذي رسمه القرآن الذي أنزله الله وحياً على رسوله، لتبليغ رسالته إلى البشر عامة، والعمل بمقتضى هذه الرسالة، وما تقتضيه من توحيد تمتلىء القلوب به، وترد الأمور إلى الله الفرد الصمد، الواحد الأحد الذي لا يعبد سواه. . . وبهذا تحقق العقيدة هدفها في معرفة الإنسان لربه، وانقياده لأوامره وتضحيته في سبيل الحق، والابتعاد عن كل انحراف، وتحري الرشد في حياته وسلوكه.

بهذا المنهج العلمي والعملي لمفهوم العقيدة تتحقق شخصية المسلم، بما يميزه عن غيره من باقي الشخصيات، إذ الشخصية الإسلامية، هي التي رسم الله معالمها وحدد صفاتها ومقوماتها، هذه الشخصية السماوية المعنوية نزل بها القرآن وبين عناصرها، ودعا الناس إلى اتباعها لتكون نفوسهم بها مثلاً أعلى، وطريقاً للهداية، وتحقيقاً للسعادة.

قال تعالى:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

هذا النموذج للإنسان المثالي بحكم وجوده لا بد له من اتباع سلوكيه معينة لتحقيق حاجاته من خلال ذاته، ومن خلال مجتمعه، سواء كانت هذه الحاجات مادية أو روحية، لهذا كان لا بد من منهاج يعتمده ويحدد به سلوكه في ضوئه. لأن الإنسان إذ ينشد تحقيق هذه الحاجات على اختلافها، يرى أن هذه الرغبة هي سبيل السعادة التي من خلالها تتحقق الحاجات بكل حرية واطمئنان بسلوكية وأخلاقية مثالية، يسود فيها التآخي والتضامن، والمحبة والسلام بين أفراد المجتمع، من خلال حياة روحية، ترسم الرسل طريقه وتضمن حمايته وتحض على اتباعه، لأن السلوك في اتباع المعالم الإنسانية والروحية قد يختلف الناس فيه، ومع ذلك فإن معظمهم من ذوي العقول المتزنة، وإن كانوا متفقين في الغالب في تقييم الخطأ والصواب، وتمييز الحق من الباطل، والنافع من الضار والحسن من القبيح، فإن أصالة الرأي عند أصحاب هذه العقول تقتضي التقرير بأن الشر: هو كل ما يجر الفساد في النفس أو في النظام أو في المجتمع، كالكفر والشرك مثلاً، ولكنهم مع ذلك يختلفون في ماهية الكفر أو الشرك، تبعاً لمدلوله في كل عصر، قبل الإسلام أو بعده، بمعنى أن الناس تختلف في النظر في كل عمل بعينه اختلافهم في أمزجتهم، وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم[2] بل إن كثيراً ما نجد أن بعض الناس يختلف في الحكم على سلوك معين، إذ قد يرى في سلوك ما أنه هو الصحيح ويتوخى فيه الخير ظناً منه أنه يحقق نفعاً ما، فإذا به يحقق الشر ويجلب الضرر.

من هذا المنطلق لا يمكن الركون إلى العقل البشري وحده وخاصة في

(1) سورة الأنعام، الآية: 153.

(2) محمد عبده رسالة التوحيد ص: 41.

الأمور الروحية والدينية، طالماً أن العقول مختلفة، لهذا تستطيع القول: إن العقل البشري لا يستطيع وحده تحقيق السعادة لصاحبه اللهم إلاّ القليل النادر، حتى الإنسان الكامل الإنسانية لا يمتنع من أن يستنكر أشياء ويخيل إليه أنها غير ممكنة من غير أن تكون في الحقيقة كذلك[1].

ويقول الشيخ الجليل أبو سليمان المنطقي في هذا الصدد:

«إن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصباؤهم مختلفة فيه»[2] بمعنى أن الشيء الذي يرضي عقلياً شخصاً ما، قد لا يرضي غيره، لهذا لا يمكن قبول التدخل العقلي في أمور الدين، وإلاّ لاختلف الناس باختلاف عقولهم في تحديد المفاهيم الدينية، وقد يؤدي هذا، إلى أن ما يراه شخص ما أنه حق، يراه الآخر أنه باطل، وبالتالي يختلف الحكم في المعتقدات تبعاً لاختلاف الأهواء حيث تختلف بها النتائج والقيم.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[3].

من هذا المنطلق تختلف الأمة في مفاهيمها للقيم الروحية والدينية وتختل المعايير، وتضيع القيم تبعاً لهذه التفرقة والاختلاف، وتخرج الأمة عما أمر به الله، ولهذا كان لا بد من إخضاع العقل للدين، بحيث يكون الدين هادياً للعقل، لذلك تستطيع أن تقرر أن العقول ليست سواء في معرفة الله تعالى، ومعرفة العقيدة ولا في معرفة الحياة، لهذا كان لا بد من رسل مبشرين ومنذرين.

وإذا كان الناس قد يتفقون على وجود قوة أعلى من قوتهم، لكن الوثنية تبعاً لزمان وجودها قد أفسدت العقول، وحرفت النفوس، وجادت بها عن جادة السعادة، وأضحى الفرد بعقله عاجزاً عن معرفة الله وحقيقة وجوده، والعقيدة

---

(1) الفارابي ـ إحصاء العلوم.

(2) القفطي ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء أشار إليه عبد الحليم محمود ـ الإسلام والعقل ص: 29.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

التي يقتضي الإيمان بها، والتي أمر الله بها، كما يعجز الإنسان بعقله أن يدرك عالم الغيب، ليعرف الحياة الآخرة والثواب والعقاب أو يعرف السلوك الديني العملي الواجب الاتباع، أو أن يعرف ذاتياً بمن يقتدي، أو يهتدي لتكون أعماله على بصيرة منه صالحة له. لهذا ترى الإنسان يتحسس خطأه ليصل بعقله إلى سبر مفاهيم الحياة الأخرى ومعرفة كنهها وحقيقتها، وما هي الأعمال التي يقتضي القيام بها في هذه الحياة الدنيا والتي يثاب على فعلها أو يعاقب على تركها، وكيف تتم طرق المحاسبة عليها، ومع ذلك فهناك بعض الأعمال لا يمكن للعقل البشري أن يعرف فائدتها أو نسبتها، تبعاً لشكلها أو عددها، كصور العبادات، بأشكالها المختلفة من صلاة وصوم، وزكاة، وحج، كل هذه الأمور لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفتها أو يدرك مدى فائدتها، بينما يعلم الله ورسوله أن فيها سعادة البشر في الدارين.

فالسجود مثلاً لم يدرك العقل معناه إلاّ بعد أن وضحه الله ورسوله، لأن السجود ليست الغاية منه الحركة فحسب، ويروي الإمام مسلم عن أبي عبد الرحمن: ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عليك بكثرة السجود، فإنك لن تسجد لله سجدة إلاّ رفعك الله بها درجة، وحط عنك خطيئة**».

فالمعنى العميق للسجود، أنه عباده تتمثل في الخضوع لجلال الله وعظمته والانقياد المطلق لرحمته، والتقرب إليه بالعمل بأوامره واجتناب نواهيه، قال تعالى:

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾[1].

ويقول الرسول ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**».

فالسجود إذن استجابه لأمر الله تعالى جل جلاله.

---

(1) سورة العلق، الآية: 19.

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

هؤلاء الذين هداهم الله لمعرفة معنى السجود.

قال تعالى:

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[2].

فمعنى السجود، إذن أشار إليه سبحانه وتعالى في مواضع عدة من القرآن، كقصة خلق آدم ومطالبة الملائكة بالسجود له وامتناع إبليس.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[3].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[4].

فإبليس هنا استعمل عقله إذ قال تعالى على لسانه:

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[5].

هذا المنطق إنما هو منطق الاستكبار والاستعلاء والهوى، وهو يحمل معنى العصيان لأمر الله، وهذا مستفاد من قوله تعالى:

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[6].

---

(1) سورة السجدة، الآية: 15.
(2) سورة مريم، الآية: 58.
(3) سورة الحجر، الآية: 28 ـ 29.
(4) سورة ص، الآية: 73 ـ 74.
(5) سورة الأعراف، الآية: 12.
(6) سورة الأعراف، الآية: 12.

وهكذا نجد أن محاولة إبليس في تحكيم العقل في أمر الله بالسجود، إنما هو كبرياء، واتباع للأهواء، لهذا لا يسوغ تطبيق النهج العقلي في أمور الدين لأن هذا النهج دون الهداية، إنه نهج ينحرف عن الإيمان، لأن مقتضى الإيمان طاعة الله لأوامره، بصرف النظر عما يحدث به عقل، أو يرتضيه، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۩ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

فسبيل المؤمنين إذاً إنما هو اتباع الهدى بالاستجابه لأوامر الله ونواهيه قال تعالى في شأن هؤلاء:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

نخلص أن العقل وحده لا يعتمد كوسيلة للإيمان بالعقيدة إذ للعقيدة بُعْدان: أحدهما البعد العقلي. وهذا خاضع للفلسفة، ومعيار ضبطه منطق أرسطو. والبعد الثاني: بُعد إلهي مصدره الوحي. وهذا الوحي له وسيطه ورسوله وهو القائد الذي يأمر العقل ويقوده تبعاً لأمر الله.

وهكذا نجد أن العقل الإنساني محتاج للقيادة الإلهية وطاعته التي تتم بواسطة النبي أو الرسول.

إذا كانت العقيدة تهتم بالجانب العلمي وهو معرفة الله وصفاته، فإن ما تقتضيه هذه المعرفة هو الإيمان، وهو الجانب العملي لهذه العقيدة، إذ لا أثر للعقيدة دون عمل، لأن معرفة أبعاد العقيدة لوحدها لا تحقق الغاية المطلوبة،

---

(1) سورة السجدة: الآية: 15 ـ 17.

(2) سورة الزمر، الآية: 9.

وهي سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة تبعاً لإقامة المجتمع الإنساني الذي يقوم على منهج رباني، أراده الله لخير البشرية جمعاء.

هذا المنهج المنزل من عند الله والمطلوب تطبيقه، إنما هو تنظيم لسلوك الفرد والمجتمع وفقاً للشريعة والمبادئ والأخلاق التي تقتضيها طبيعة العقيدة التي أنزلها الله، فلا بد والحالة هذه من وسيط من بني الإنسان، متميز بصفاته وأخلاقه على سائر بني جنسه يكشف معالم العقيدة ويشرحها، ويتكلم عن الله ويعرِّف بصفاته الكمالية، وبما يريده الله، فيدعو إليه مبشراً ومنذراً، ومعيناً للناس على حمل شريعة الله وتعاليمه، العمل بمقتضاها، وهذه هي ظاهرة النبوة التي لا بد من وجودها.

فالنبوة إذن ظاهرة أساسية، تُعرِّف البشر بالله مصدر شريعتهم وسعادتهم، كما تُعرِّف النبوة بصفات الله ووجوب الاعتقاد بربوبيته، وألوهيته، ووحدانيته، إذ لا يمكن للعقل وحده أن يصل بهذه الأمور إلى القناعة، واليقين، والطمأنينة المطلوبة، دون هادٍ يبين طريق الخير، ويشرح أحكام الشرع، ويبين الأعمال الخيرة التي يستحق فاعلها الثواب، كما ويبين القبح الذي يقتضي العقاب. فالنبوة إذاً تحدد الأعمال التي يتحقق بها الخير ويناط بها السعادة في الدارين، كما تحدد الحدود الواجب الوقوف عندها، ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾، أي أن النبوة تبين، ما أمر الله به، وما نهى عنه، وما أوجبه، وما يعتبر عمله ندباً أي كل ما حددته الشريعة على أنه عمل يثاب المرء على فعله، أو يعاقب على فعله أو تركه.

كل هذه الأمور لا يمكن للعقل البشري أن يستقل بمعرفتها باعتبارها شريعة منزلة من عند الله، فلا بد من نبي يبين ما أمرت به الشريعة وما هو حسن بذاته يحقق المنفعة الدنيوية والأخروية، وما ينعكس أثره على معيشة المرء وسلوكه، وما يحفظ له بدنه ونفسه، وماله وعرضه، وعلى هذا نجد أن الدين بقوانينه الإلهية لا بد له من نبي يبشر به ويشرح نظامه وقواعده وأحكامه، إذ نلاحظ أن كافة الديانات الإلهية، تمثلت فيها ظاهرة النبوة في جميع المظاهر

الروحية و الأمور الشرعية التي صحبتها، إذ منذ إبراهيم عليه السلام، تتابع رجال طرحوا مفاهيم دين الله بقوة لا تقاوم، وخاطبوا الناس بالحقيقة المؤمنين بها، والتي عرفوها معرفة شخصية عن طريق الوحي، وأنهم أنبياء مرسلون من عند الله، ليبلغوا كلمته إلى الناس جميعاً، باعتبار أن معرفتها محجوبة عن الناس، فظاهرة النبوة إذاً تتميز بأمرين أساسيين:

الأول: أن مضمون الرسالة النبوية التوحيد.

الثاني: أن الرسالة تتصف بخصوصية ذاتية ، تتم المعرفة فيها عن طريق الوحي. فالنبوة إذن تتمثل في مضمون جوهري، يتم تبليغه بالوحي، ليبلغه النبي إلى البشر، حيث لا يستطيع هؤلاء سماعه مباشرة.

الأنبـياء:

إن الأنبياء رجال من البشر يرسلهم الله هداية للبشر، وهذه ظاهرة أساسية لتبليغ رسالات الله، فظاهرة النبوة إذن لا بد منها يتصف بها النبي بعاملين هامين:

1 ـ العامل النفسي:

هذا العامل داخلي في نفس النبي أو الرسول وهذا العامل لا يمكن ملاحظته أو قبوله من خلال شهادة النبي بنفسه بذلك، بل لا بد لتأييد هذه الشهادة من رسالة لها محتوياتها ومدلولاتها المتواترة المنزلة، وهذه الظاهرة ليست حدثاً فردياً غريباً ونادراً إنما هذه الظاهرة تكررت على وجه الاستمرار، فظهر العديد من الأنبياء منذ إبراهيم عليه السلام حتى محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فظاهرة النبوة إذاً هي شاهد علمي ومادي وروحي تثبت صحة النبوة ديناً وعقلاً، باعتبارها مقررة من الحكيم الخبير لهداية البشر إلى الطريق المستقيم، ولرفع كلمة الله، كما أن ظاهرة النبوة المتكررة في نفس الشروط والمناخ الاجتماعي لأي أمة من الأمم، إنما تظهر في فترة تدهور خلقي وديني،

واضطراب اجتماعي، بغية إصلاح المجتمع عن طريق شريعة معينة، ومما يثبت لنا صحة ذلك تكرارها على مدى العصور القديمة، كما يحدثنا القرآن عن قصص الأنبياء، ومن هذا نستطيع أن نستخلص القانون العام لظاهرة النبوة: بأن ظهورها ليس ذاتياً بوحي من نفس الشخص مدعي النبوة تبعاً لخياله أو خيال أشخاص معينين، أو تبعاً لثورة عصبية، أو توتر نفسي، أو فكر ثائر، أو اختلال عقلي، بل إن ظاهرة النبوة أثبتت لنا أن الأنبياء هم المؤمنون حقاً، والمكلفون بالدعوة من الله، وهم أناس بشر في أعلى مراتب الكمال الإنساني والبدني والنفسي والأخلاقي والعقلي، وهم بمبعث للثقة والاطمئنان، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾[1].

لهذا كان الإيمان بالأنبياء والرسل من صميم العقيدة، لأنهم يثبتون لدعوتهم واصلاحاتهم المكلفون بها وقد قام البرهان على اختيارهم من الله عن طريق المعجزات التي أثبتتها أو قررتها الدراسات للوثائق الدينية، وهي ضمانات تاريخية باعتبار أن هذه الصفات المتوفرة في الأنبياء من أخلاق، ومعجزات هي التي تميز بين الأنبياء وأدعياء النبوء، لا سيما وأن تكاثر الكهان والعرافين في عصور مختلفة، أدى إلى استحواذ التقليد على الجماهير محاكاة لنبي ما، مما ظهر بهذا أدعياء النبوّة، وبهذا نشأت حركة التنبوءات المزعومة، لهذا فإن النبي باعتباره ذاتاً، فإنه يمكن أن يحدثنا عن حالته الداخلية والسياسية والخارجية لرسالته، وهذه النبوّة تعتبر كسبب يثير الاضطراب في نفس الذات الإنسانية للنبي، ويدفعها دفعاً لا سبيل لأحد أن يقاومها، هذه الرسالة التي يدعو إليها باعتبارها رسالة ربانية. فضلاً عن أنها إرادة حتمية لا يملك النبي ذاته مقاومتها، وهذه هي الميزة والسمة، أو الطابع الأساسي للنظرة الموضوعية التي تتميز بها الحركة النبوية.

---

(1) سورة الحج، الآية: 75.

2 ـ العامل الموضوعي:

هذا العامل ليس من عند النبي بالذات، إنما هو وحي خارجي يتنزل على النبي أو الرسول. . .

فالنظرة الموضوعية للحركة النبوية تتجلى بالفرق بين النبي الموحى إليه والنبي المحترف، فالنبي الموحى إليه يقاوم بعنف فكرة الألوهية القومية للعقيدة الشعبية الوثنية، وتتحلى دعوته باستمرارية العقيدة التي يدعو إليها والقائمة على فكرة ثابتة لا تتزعزع، فكرة إله واحد، رب العالمين فيدعو إلى وحدته وطاعته، والعمل بأوامره واجتناب نواهيه، وفقاً للشريعة المنزلة.

فالنبي على هذا الأساس له مبدأ وثيق الصلة بأفكار الحركة النبوية، وأسسها وسماتها الخالصة، بما تتصف بالأفكار العامة لها، فضلاً عن أن زمن عرضها يتفق مع مبادئها وتبليغها بينما مدعي النبوة، أو النبي المحترف لا يبشر بمبدأ شخصي، بل ينتهز اتباع التيار الشعبي مجرداً عن أي أثر أخلاقي، بعيداً عن أي إلهام رباني، بل قد يبشر بنوع من المعارضة في سبيل المعارضة، أو في مقابل مقاومة رسالة لنبي ما.

وهكذا نجد فرقاً كبيراً بين النبي ومدعي النبوّة، مما يتعين عدم الخلط بينهما. فظاهرة النبوّة موضوعياً، إنما هي دعوة الأنبياء لتطهير البشر من برائن الشرك والوثنية، وإنقاذهم من التحلل والفساد العقائدي والاجتماعي والأخلاقي، بعد أن حادوا عن الطريق السوي الواجب الاتباع، قال تعالى:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾[1].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 213.

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[2].

وقوله أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾[3].

فالنبوة إذاً ظاهرة ربانية باعتبارها هبة من الله لبني البشر، وهي نعمة أسداها الله لعباده ليخرج الناس بها من الظلمات إلى النور عن طريق الأنبياء الذين اصفطاهم على سائر البشر، وهم ذكور يأكلون ويتزوجون ويتعرضون لما يتعرض له أي إنسان وقد اختصهم الله بهذه المهمة من الأمة نفسها.

قال تعالى:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[4].

وقال تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[5].

هذا الاصطفاء الاختيار من الله إنما يتم لمهمة يلقيها على من يشاء من عباده من الذكور، وهي مهمة شاقة وثقيلة لا تتحملها طبيعة المرأة، قال تعالى مخاطباً رسوله خاتم الأنبياء والمراسلين:

---

(1) سور الأنبياء، الآية: 7.
(2) سورة الفرقان، الآية: 20.
(3) سورة الرعد، الآية: 38.
(4) سورة البقرة، الآية: 105.
(5) سورة الإسراء، الآية: 95.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1].

هذا الاختيار لأفضل خلقه وصفوة عباده، ليقوم بمهمة نشر كتاب الله والدعوة إلى تعاليمه وأحكامه. هذا النبي المختار ليس له أي مظهر من مظاهر السلطان أو الملك أو الزعامة أو الغنى بل رسول يحمل النبوة ليكون نموذجاً صادقاً في الرسالة التي يدعو إليها بأمر الله واختياره:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[2].

وعلى هذا فإن النبوّة تبعاً لهذا الاختيار لا تورث لأحد من أولاد الأنبياء فالنبوّة اختيار على وجه اليقين.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[4].

هذا الاختيار والاصفطاء هو الذي يقرر مفهوم النبوة.

فالنبوة تفيد معنى الأخبار وهو النبأ[5] والنبي هو الذي يوصل ويحقق ما أمر به الله عن طريق الوحي. فمهمة النبي على هذا الأساس هي علاقة قائمة بين الخالق والنبي، وهذه العلاقة تحقق الإبلاغ والأنباء وهي تهدف إلى إيصال الخبر من الله إلى عباده عن طريق من اختاره وهو النبي.

---

(1) سورة المزمل، الآية 5.

(2) سورة الأنعام، الآية: 124.

(3) سورة الدخان، الآية: 32.

(4) سورة آل عمران، الآية: 33.

(5) جاء في المصباح «والنبأ مهموز، الخبر، والجمع أنباء مثل سبب وأسباب وأنبأه الخبر، وبالخبر ونبأته بما أعلمته والنبي على فعيل مهموز لأنه أنبأ عن الله أي أخبر.

أما الرسالة، فهي صلة ما بين الرسول والناس، لهذا كانت النبوة مما يمكن أن يتحقق بها معنى الرسالة إذا كلف النبي بالتبليغ، لأن الرسالة هي تكليف الله أحد عباده بإبلاغ الناس بشرع الله، أو بحكم معين منه، فالنبوة إذن تجسد علاقة بين الله والنبي، والرسالة تجسد علاقة بين الرسول والناس، وهي تحقق الهدف من البعث والإرسال، وبهذا يمكن أن يكون الإنسان نبياً ولا يكون رسولاً ومع ذلك يرى بعض العلماء أنه يمكن أن يكون مدلول النبوة والرسالة واحداً[1] فقد يسمى نبياً إذ نظر إليه من ناحية العلاقة بينه وبين الله، ويمكن أن يسمى رسولاً إذا نظر إليه من ناحية العلاقة بينه وبين الناس.

هذا كما أن علاقة الرسالة لا تنال بالكسب أو الاجتهاد أو الطاعة أو الرياضة النفسية أو فعل الخير، ذلك لأن التوصيف بهذه الصفة تتم الصفة باختيار من الله للصفوة من البشر ليكونوا عنواناً للفضل وحملة لمشعل الهداية، لتحقيق الحضارة الإنسانية بهم، وهم الذين شاء الله أن يجعلهم أئمة في الدنيا للهدى لطريق الدين والإيمان.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[2].

وخلاصة القول في توصيف النبي أو الرسول إنه إنسان وهو رجل من البشر تجري عليه قواعد الحياة، من طعام وشراب، وزواج وتعامل، ومشي في الأسواق، ويتعرض كأي إنسان للصحة، والمرض، والقوة، والضعف، واللذة والألم، والحياة والموت كما يتعرض للأذى في دعوته وما عليه إلاّ الصبر.

---

(1) حاشية الباجوري على الجوهرة.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 73.

قال تعالى:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾(1).

وقال تعالى في إجراء قواعد الحياة من موت أو قتل على الرسل تخصيصاً وتعميماً:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾(2).

هذا كما أن النبي أو الرسول لا يملك لنفسه خيراً أو نفعاً إلاّ بما شاء الله، كما أنه لا يعلم الغيب إلاّ بمقدار ما يطلعه عليه الله.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(3).

وقال تعالى:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾(4).

خصائص النبوة ومزاياها:

تختص النبوة في شخص النبي بخاصتين: إذ إن شخصية النبي تحتوي ذاتين مزدوجتين في جسم واحد.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 83 _ 84.

(2) سورة آل عمران، الآية: 144.

(3) سورة الأعراف، الآية: 188.

(4) سورة الجن، الآية: 26 _ 28.

أحدهما: مادية حسية شعورية لا تختلف عن الطبيعة البشرية من حياة وروح داخلية وهي تخضع للقوانين الحياتية من ولادة وسلوك، وحياة وممات وما تقتضيه هذه الحياة من طعام وشراب.

والثانية: روحية خارجة عن ذات النبي مستقلة عنه تمام الاستقلال إنما يدل عليها الوحي المنزل عن طريق جبريل بشهادة الأنبياء أنفسهم الذين نزل عليهم الوحي، إذ جميع الأنبياء تحدثوا عن ظاهرة النبوة ووضعوها في نطاق الوحي خارج كيانهم الشخصي فهي مستقلة عنهم استقلال المغناطيس عن الإبرة الملزمة بالعمل في مجالها، وبالاتجاه الذي يلزمها نحوه. هذا الاتجاه الموحد هو اتجاه جميع الأنبياء، إذ يأمرهم الله سبحانه وتعالى فيطيعونه ويسلكون تبعاً للدعوة المكلفين بها بسلوك معين، يتصف بصفات خاصة في هذا المجال هي:

1 ـ القهر النفسي. وسلوك معين يفضي جميع العوامل الأخرى للذات.

2 ـ تطلع على أحداث المستقبل وهو نوع من الكشف خص به الأنبياء.

3 ـ استمرار مظاهر السلوك النبوية وتماثلها الظاهر والخفي عند جميع الأنبياء[1] هذا كما أن استمرار الأنبياء في سلوكهم النبوي يتجسد فيما يلي:

أولاً ـ الدعوة الربانية:

يهدف سلوك الأنبياء في دعوتهم إلى الله على أنها دعوة ربانية أمروا بها بوحي من الله وتكليف منه، فهي ليست بدعوة ذاتية تنبع من شخصهم أو ذكائهم أو حميتهم، أو استنكارهم للأوضاع الاجتماعية.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[2].

وقال تعالى في هذه الخصوصية:

(1) مالك بن نبي ـ الظاهرة القرآنية ص: 96 ـ 97.

(2) سورة يونس، الآية: 15.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1] .

فدعوة الرسل مصدرها الوحي والرسالة التي يصطفون لها، فهم ليسوا كالزعماء أو المصلحين الذين يبذلون أنفسهم ليكونوا مصلحين نتيجة لبيئتهم، أو صدى لمحيطهم، أو رد الفعل لما يعتور مجتمعهم من فساد وفوضى.

قال تعالى:

على لسان رسوله الكريم محمد رسول الله ﷺ:

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2] .

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3] .

فالدعوة أمر من الله ينزلها على من يشاء من عباده.

قال تعالى:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[4] .

هذه الدعوة الربانية لا يملك أحد تبديلها أو تغييرها أو الانحراف عنها بل هي ملزمة، لأنها ليست اجتهاداً من قبل الأنبياء، بل هو التزام التزم به جميع الأنبياء.

---

(1) سورة النجم، الآية: 3 ـ 4.
(2) سورة يونس، الآية: 16.
(3) سورة الشورى، الآية: 52.
(4) سورة النحل، الآية: 2.

قال تعالى:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

دون أجر أو مقابل أو أي كسب مادي لأن قدسية الدعوة لا تتناسب أن تكون بمقابل لهذا يعلن جميع الأنبياء إن أجرهم إلاّ على الله وقد قال تعالى على لسان (هود) عليه السلام:

﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

وقال تعالى على لسان محمد ﷺ:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾[3].

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[4].

ثانياً ـ التفاني والإخلاص:

تتصف دعوة الأنبياء والرسل إلى الله وتوحيده في ربوبيته وألوهيته بالتفاني والإخلاص، إذ إن مهمة الأنبياء توضيح الطريق إلى الهداية والاستمرار في ذلك لإقامة دين الله بهدف القضاء على العقيدة الوثنية، وإحلال محلها العقيدة الإلهية، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو الهدف الأسمى المقدس الذي سار عليه جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

---

(1) سورة يونس، الآية: 15.
(2) سورة هود، الآية: 51.
(3) سورة الفرقان، الآية: 57.
(4) سورة ص، الآية: 86.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[2].

فإقامة الدين وعبادة الله تتحقق بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله. واليوم الآخر هذا الإيمان بطبيعته يفضي إلى إصلاح النفس البشرية فيزكي النفوس ويطهرها ويغرس فيها حب الخير والابتعاد عن الشر ويبعث فيها الحكمة والكمال، ويقيم الوحدة والتضامن والتكاتف والاعتصام.

قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[3].

هذا الدين تتم الدعوة إليه بوحي عن طريق الرسل:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾[4].

هذه الدعوة المقدسة التي تقوم على التفاني والإخلاص في سبيل الله لا تتم إلاّ عن طريق الرسل مبشرين منذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[5].

---

(1) سورة الأنبياء الآية 25.

(2) سورة البينة، الآية: 5.

(3) سورة الشورى، الآية: 13.

(4) سورة النحل، الآية: 36.

(5) سورة النساء، الآية: 165.

وهكذا نجد أنه بواسطة الأنبياء يتم التوضيح إلى طريق الهداية، فإذا ضل الناس بعد الهداية استحقوا العذاب باعتبار أنه لم يعد لهم عذر في ذلك.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وقال تعالى في إقامة الحجة على الذين ضلوا:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[2].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

ثالثاً ـ البساطة والوضوح:

تتصف دعوة الأنبياء بالبساطة والوضوح، إذ إنهم يخاطبون الناس بالحكمة والموعظة بأسلوب فطري واضح مفهوم، لا تكلف فيه ولا تعقيد وهو الأسلوب الناجح في الإقناع والبعيد عن المناهج الكلامية.

قال تعالى:

داعياً إلى هذا الأسلوب في الدعوة والجدال:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4].

كما قال تعالى على لسان إبراهيم في طريقة إقامة الحجة والبرهان واتباع سبيل الإقناع لمن ينكر قدرة الله وقوته:

---

(1) سورة التوبة، الآية: 115.

(2) سورة فصلت، الآية: 17.

(3) سورة الإسراء، الآية: 15.

(4) سورة النحل، الآية: 125.

﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[1].

إلى جانب البساطة فإن دعوة الأنبياء تتصف كما قلنا بالوضوح، لأن الإيمان بالله لا يحتاج إلى تعقيد في إثبات وجوده وآثاره، ففي كل شيء له آية تدل على جوده.

قال تعالى:

مشيراً إلى ذلك، مخاطباً رسول الكريم محمداً ﷺ:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

رابعاً ـ الترغيب والترهيب:

تتصف دعوة الأنبياء أيضاً بالترغيب للناس، فيما عند الله من حسن الثواب، وإيثار حياة الآخرة على الدنيا، فيكونوا هم القدوة الحسنة إذ يزهدون في الدنيا مع قدرتهم على أن يعيشوا في نعيم مقيم، ولكنهم يعلمون الناس:
﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[3].

إن هذا السلوك هو المطلوب، إذ قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[4].

فدعوة الأنبياء تتخذ منهم سلوكاً معيناً، هذا السلوك هو مبدأ ومنهاج

---

(1) سورة البقرة، الآية 258.
(2) سورة يوسف، الآية: 108.
(3) سورة الشورى، الآية: 36.
(4) سورة طه، الآية: 131.

حياتهم وحياة الرسول الأعظم محمد ﷺ خير منهاج وأفضل مثل للسلوك والزهد في رغد العيش وإيثار حب الآخرة على الدنيا.

خامساً ـ وحدة دعوة الأنبياء:

إن دعوة الأنبياء عامة على اختلاف عصورهم ترمي إلى وحدة التوحيد أي تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الأحد، مخلصين له الدين بعقيدة واحدة، وهي عقيدة التوحيد بفحواها الشمولي للإيمان بوحدانية الله، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال تعالى:

على لسان (نوح) عليه السلام:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[1].

وقال تعالى أيضاً على لسان (هود) عليه السلام:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[2].

وعلى لسان (صالح) قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[3].

سادساً ـ التوفيق في الدعوة:

تتصف دعوة الرسل بالتوفيق، وبتحقيق الهدف بعناية الله، فهم يدركون بحسهم وبعد نظرهم وأصالة رأيهم أنهم متميزون عن سائر البشر، فينصرون قدرة الله وعظمته في كل شيء، فيرون مظاهر جماله وجلاله في الأرض والسماء وفي الليل والنهار، وفي الحياة والموت، فتمتلئ قلوبهم إجلالاً ووقاراً لله فيعلمون أنه لا سلطان عليهم لأحد. ولا موضع عندهم لهوى، أو جنوح

(1) سورة الأعراف، الآية: 59.
(2) سورة الأعراف: الآية: 65.
(3) سورة الأعراف، الآية: 73.

بشهوة، فهم أئمة يهدون بأمر الله،وهم دائماً بعنايته ورعايته مشمولون، وبقوته مؤيدون، وبنعمته يتحدون، وبعلمه وعصمته محاطون.

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وهكذا نجد أن الأنبياء والرسل قد بلغوا الغاية من السمو الأخلاقي والروحي، والصلة بالله، فهم يتصفون بصفات خلقية عظيمة من صدق وأمانة وجهاد في سبيل الله، بغية تحقيق الحق وإظهاره والاستشهاد من أجله، وقد خصهم الله بأوصاف محببة إليه، فوصف كل نبي بصفة خاصة، فوصف إبراهيم عليه السلام بالصديق قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[3].

ووصف موسى عليه السلام بالمخلص:

قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾[4].

ووصف إسماعيل عليه السلام بأنه صادق الوعد مرضي عنده، قال تعالى:

---

(1) سورة الطور، الآية: 48.

(2) سورة يوسف، الآية: 6.

(3) سورة مريم، الآية: 41.

(4) سورة مريم، الآية: 51 ـ 52.

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا * وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[1].

هذا وقد وصف الله سبحانه وتعالى أنبياء أخر بأنهم من الأخيار فقال تعالى:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ * إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ * وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[2].

كل هذه الصفات والميزات التي خص بها الله أنبياءه ورسله، ووصفهم بأسمى الصفات وأكمل النعوت، تدل على تكريمه واصطفائه لهم، وهذا بالطبع ما يشير إلى علو شأنهم ورفعة مكانتهم، وسمو الرسالة التي يحملونها. والتي بعثوا من أجلها، وحملوها، وبلغوا بها فكانوا قادة الهداية، ورواد العقيدة، فهم أكمل البشر وأشرف النسب مختارون من عباد الله الصالحين. محفوفون برعاية الله وعنايته، حاملون لأقدس الأمانات وأعظمها، وهي التعريف بالله ونشر عقيدته وأحكام شريعته لتحقيق العدالة والخير، والتكافل والتضامن الاجتماعي، بسلوكية أخلاقية عالية، غاية في المثالية، هدفها تحقيق حقوق الله، بالعبادة بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والتي تحقق حكماً بأهدافها سلوكية إنسانية فذة تقيم في المجتمع الأمثل الفاضل.

هؤلاء الأنبياء الذين يحملون هذه الأمانة، لا بد وأن يكونوا متصفين بصفات خصها الله بأنبيائه، فما هي هذه الصفات.

(1) سورة مريم، الآية 54 ـ 55.

(2) سورة ص، الآية: 45 ـ 48.

الفصل الثاني

صفات الأنبياء والرسل

لما كان الأنبياء والرسل قد اصطفاهم الله واختارهم من البشر حسب مشيئته للقيام بالمهمة المقدسة المكلفين بها، وهي مهمة علمية تربوية روحية، وهي في الوقت ذاته مهمة قيادية، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، لأن الشريعة التي يدعون إليها، إنما هي شريعة الله المنزلة من عنده، وما دام الأمر كذلك فمن مقتضيات الحكمة والمنطق ـ تبعاً لتحقيق الهدف المطلوب ـ أن يتوفر في الأنبياء صفات تقتضيها هذه المهمة، وهذه الصفات هي:

1 ـ الفطنة وقوة الحجة:

من مقتضيات النبوة والرسالة أن يتوفر في النبي أو الرسول جانب كبير من الفطنة والدراية والذكاء، وقوة المنطق، وبلاغة الحجة، وأصاله الحوار المستمد من الرسالة ذاتها، وهذا محقق في الأنبياء والرسل فعلاً، والدليل الواضح على تحقيق هذه الصفة، ما أورده القرآن الكريم بالنسبة لإبراهيم عليه السلام،

قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

هذه الصفة التي ذكرناها والتي وهبها الله لأنبيائه ورسله ومتعهم بها، هي التي تساعدهم على حمل الرسالة ونشر العقيدة بالهداية والعقل كما وتخولهم الانتصار والتوفيق في مهمتهم بالدليل والبرهان على كل من يحاجهم.

قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

هذا وقد أورد الله سبحانه وتعالى صوراً عديدة لحوار الأنبياء،

قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

وقد رسم الله لأنبيائه أصول الحوار والجدل بحيث يحقق الحوار الحجة البالغة في سبيل الدعوة إلى الله وقد بين وسيلة الدعوة مبدئياً، بأن تكون الحكمة رائدها والموعظة طريقها، وهذا هو الأسلوب التي تقتضيه طبيعة الدعوة في بدئها، وهي أحسن السبل في أساليب الجدل، كما أنه أبلغ أسلوب في الحوار الذي تقام به الحجة، والذي ينبثق عادة ممن يتمتع بذكاء حاد وعقل راشد قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 83.

(2) سورة الأنعام، الآية: 124.

(3) سورة البقرة، الآية: 258.

(4) سورة الأنبياء، الآية: 51.

ولا شك أن إبراهيم عليه السلام، بما متع به من رشد وفطنة، استطاع أن يدحض دعوة الشرك بالحجة الدامغة والبرهان المفحم، والحوار البناء، هذه الصورة التي عرضها القرآن الكريم لصفة إبراهيم، آية من آيات البلاغة والحجة والمنطق وقوة البرهان، لأن من أتاه الله رشده، يتضمن حكماً هذه الصفات التي يحتويها مفهوم الرشد، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ * قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[1].

وهكذا يتهم المشركون إبراهيم عليه السلام فيسألونه عمن فعل بآلهتهم فيجيبهم مسفهاً آلهتهم وعقيدتهم مستنكراً عبادة من لا يعقلون، ولا يملكون النفع والضر ببرهان ساطع وحجة دامغة، وإقرار استنكاري تهكمي ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[2]. ويستمر الحوار على هذا النمط من قوة الحجة.

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3].

بعد هذا الجدال وعلى الرغم من انتصار إبراهيم عليه السلام في حجته فإن

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 52 ـ 61.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 63.

(3) سورة الأنبياء، الآية: 64 ـ 67.

هذا الحوار قد انتهى بإصدار الحكم على سيدنا إبراهيم عليه السلام بالحرق، ولكن الله لم يتخلَّ عنه، بل نصره على من أرادوا الكيد به، وظهرت المعجزة بأن بطلت خاصية الحرق في النار.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾[1].

فرد الله كيدهم وجعلهم من الأخسرين.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[2].

2 ـ الصدق والاستقامة:

إن مهمة الأنبياء والرسل إذ هي بتكليف من الله سبحانه وتعالى ينقلون ما أمرهم به فلا بد للوسيط في هذه الحالة من أن يكون متمتعاً بصفة الصدق وملازمة له في كل ما يخبر به، فالصدق والاستقامة، صفتان هامتان، وضروريتان، لا بد، وأن تكونا متوفرتين في كافة الأنبياء والرسل، تلازمهم في دعوتهم وسلوكهم، فلا يفترون على الله كذباً، ولا يخادعون ولا يمكرون، ولا يغدرون، بل هم عباد الله المخلصون صادقون ومستقيمون فيما يدعون إليه، وبهذا نستطيع أن نقرر أن الكذب والخيانة والافتراء كلها صفات مناقضة لطبيعة الرسل والأنبياء، فهم إذن منزهون عن كل صفة قبيحة، أو مستهجنة عند الإنسان العادي، فمن باب أولى أن تكون مثل هذه الصفات السيئة منتفية عليهم، لأن دعوة الأنبياء والرسل تقوم على الثقة فيما ينقلونه ويخبرون به، وهي ثقة أقامها الله فيهم، ذلك أن العقيدة التي يدعون إليها هم مؤمنون بها أولاً، فلا يسوغ أن تكون مدار كذب أو افتراء لاستحالة اجتماع النقيضين الصدق والكذب في عقيدة واحدة مصدرها الله سبحانه وتعالى وهذا ما يؤكد انتفاء التقوّل فيما يدعون إليه.

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 68.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 69 ـ 70.

قال تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ * وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

هذا وإن صدق الأنبياء والمرسلين مؤيد بالمعجزات، والله سبحانه وتعالى جل شأنه حاشاه أن يؤيد بمعجزاته من كان كاذباً فيما يدعو إليه وإلاّ لجاز إسناد الكذب إلى الله لأن تصديق الكاذب كذب[2] وحاشا الله أن يكون كذلك فالصدق إذن صفة ملازمة للأنبياء والرسل، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ومصدقاً بما صدق به موسى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[3].

وقال تعالى بهذا الخصوص أيضاً معلناً صدق رسوله الكريم محمد ﷺ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[4].

ومما يؤكد صفة الصدق عند رسول الله ﷺ إعلان الله سبحانه وتعالى بأن كل ما يوحي به إلى رسول الله إنما هو من عند الله بشهادة الله سبحانه وتعالى: إذ قال:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[5].

---

(1) سورة الحاقة، الآية: 44 ـ 48.

(2) الباجوري على متن الجوهرة ص: 71.

(3) سورة الأعراف: الآية: 104 ـ 105.

(4) سورة النساء، الآية: 170.

(5) سورة النجم، الآية 3 ـ 4.

3 ـ الأمانـة:

إن من مقتضيات سلوك الأنبياء والرسل أن يكونوا أمناء فيما يكلفون به، والأمانة من مقتضيات الصدق أصلاً، فالأمانة إذن من طبيعتها المحافظة على السلوك الواجب الاتباع ظاهراً وباطناً، بحيث يكون سر الإنسان كإعلانه، وظاهره كباطنه، فيلتزم أمانة ما هو منهي عنه، من شرب الخمر أو الزنى، أو القتل أو السرقة أو الكذب، أو بما هو مأمور بفعله من عبادة الله والقيام بأحكام الشريعة والدعوة إلى العقيدة، وهي الرسالة التي اؤتمن عليها، وكلف بنشرها، إذ لا يجوز للأنبياء والرسل أن يخونوا العهد لأنهم مؤتمنون على الوحي، يبلغون أوامر الله سبحانه وتعالى كما أنزلت عليهم، وهذا ما تقتضيه طبيعة مهمة الأنبياء والرسل، إذ هم ناصحون فيما كلفوا به، فكل رسول يعلن لقومه:

﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[2].

فهو إذاً لا يكتم على قومه شيئاً مما كلف به، وإلاّ لما اطمأن الناس للرسل، ولتخلفوا عنهم فالرسل إذاً لا يملكون أن يكتموا شيئاً حتى ولو تعلق الأمر بهم، فهم أمناء على الوحي لا يملكون التحريف أو التبديل حتى ولو كان الأمر يتعلق بهم، أو فيه عتاب لهم كما في قصة ابن أم مكتوم حين أعرض عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[3].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 68.
(2) سورة التكوير، الآية: 24.
(3) سورة عبس، الآية: 1 ـ 10.

وقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وكذلك في قصة زينب بنت جحش (مطلقة زيد بن حارثة الذي تبناه رسول الله ﷺ في الجاهلية فقد كان رسول الله ﷺ يخشى أن يتزوجها باعتبارها زوجة متبناه على الرغم من ميله لها. بيد أنه يخشى الناس، ومع ذلك فقد أعلن رسول الله ﷺ عن معاتبة الله له، وهذا ما يدل على منتهى الأمانة الحقة فيما ائتمنه الله).

قال تعالى:

مشيراً إلى ذلك:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾[2].

وروى الإمام مسلم والإمام الترمذي عن عائشة رضي الله عنها، قالت لو كان النبي ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[3].

قال عمر وابن مسعود وعائشة والحسن:

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 67 ـ 68.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 37.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 37.

ما أنزل الله على رسول آية أشد من هذه الآية»[1].

وهكذا نجد أن الأمانة، من الصفات الأساسية في الأنبياء والرسل، التي يجب أن يتصفوا بها لأن تصرفاتهم مدار اتباع، وما يأمرون به، وينهون عنه، مدار طاعة وتنفيذ لأمر الله، فليس من المعقول إذاً أن يخونوا الأمانة فيما أمروا به أو نهوا عنه، ما دام الناس مأمورين باتباعهم في أقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم، فالأنبياء والرسل إذاً معصومون عن المعاصي والمخالفة لأوامر الله جل شأنه، وهذا ما يؤيد قيام وثبوت صفة الأمانة فيما ائتمنوا عليه.

4 ـ التبليغ:

من صفات الرسل القيام بمهمة التبليغ، والمراد بالتبليغ هنا إعلام الناس، فالرسول من أولى مهمته أن يعلم الناس ويخبرهم بالذي أنزل عليه من الوحي، تبليغاً لرسالة ربه، وهي المهمة التي من أجلها اصفطاه الله، وبعثه إلى قومه ليرشدهم، ويبلغهم شريعة الله وما فيها من عبادة وأحكام ومعاملات، وما تتضمن من أوامر ونواهي، وعلى هذا نجد أن مهمة التبليغ وردت على سبيل الأمر لا للاختيار فالرسول ملزم إذن بالتبليغ بحكم أمر الله سبحانه.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[2].

فالتبليغ إذاً يتم بأمر من الله ليبلغ به الوحي إلى عباده، وهذه المهمة قام بها جميع الرسل، وهي سنة الله.

قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ

(1) تفسير القرطبي ج14 ص: 189.

(2) سورة المائدة، الآية: 67.

ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۞ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1].

فمهمة التبليغ التي يقوم بها الرسل مهمة أساسية، لا يسوغ التخلي عنها، ويقتضي إعلانها وإلى هذا يشير الله سبحانه وتعالى بقوله على لسان نوح عليه السلام:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى على لسان صالح:

﴿وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[3].

وقال تعالى في شعيب:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾[4].

فالرسالة التي ينزلها الله على رسوله لا يمكن أن تظهر للناس إذا فقدت عنصر التبليغ، فالتبليغ إذاً هو العامل الهام في نشر الرسالة وتعميمها على الناس، ومن دونها لا تصل الدعوة إلى الناس ولبقي الناس في ظلماتهم يعمهون لهذا كانت الأمانة من الصفات الأساسية للرسل هذه الأمانة مفتاحها التبليغ وهنا كان التبليغ عنصراً هاماً في الرسالة وهي السبيل لنشر دعوة الله:

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 38 ـ 39.
(2) سورة الأعراف، الآية: 61 ـ 62.
(3) سورة الأعراف، الآية: 79.
(4) سورة الأعراف، الآية: 93.

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾[1].

هذا التبليغ لا يتقيد بشكل معين، فقد يكون سراً وقد يكون علناً، وقد يكون بالكتابة أو بالكلام، وقد يكون باللطف والحكمة، كما قد يكون بالعنف والقتال، هذه الصور جميعها أوردها الله تعالى، فقال:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[2].

وهذه الصورة كانت في مستهل الدعوة وبعد أن قويت شوكة المسلمين نزلت الآية:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3].

ومنذ نزول هذه الآية جهر رسول الله ﷺ بتبليغ الدعوة، فصعد جبل الصفا ثم أخذ ينادي القبائل وبطون قريش:

(يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب... فاجتمعوا إليه فقال لهم رسول الله ﷺ:

«أرايتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم هل كنتم مصدقي؟ قالوا نعم ما جربنا عليك كذباً قط! فقال لهم عليه الصلاة والسلام: فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد، فقال عمه (أبو لهب) تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا، فأنزل الله رداً عليه:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ...﴾[4].

هذا والتبليغ مهمة مطلوب من الرسل القيام بها بصرف النظر عن وجوب تحقق الغاية من هذا التبليغ إذ جاء قوله تعالى ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[5].

---

(1) سورة يوسف، الآية: 108.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

(3) سورة الحجر، الآية: 94.

(4) سورة المسد، سيرة ابن هشام، ونور اليقين.

(5) سورة المائدة، الآية 99.

وقال تعالى:

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

أما تحقيق الهداية فأمرها منوط بالله سبحانه وتعالى فقد خاطب الله رسوله في هذا الشأن:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[2].

وهكذا نجد أن مهمة الرسول هي التبليغ، وإن هذه المهمة وإن كانت شاقة قد يتعرض فيها الرسول إلى الأذى، بيد أن الله أخذ على عاتقه عصمة الرسل من الناس.

قال تعالى:

مخاطباً رسوله بوجوب قيامه بالتبليغ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

هذا ولعل الغرض من التبليغ بإعلام الناس عن الوحي المنزل على الرسول من قبل الرسول ذاته، لاتباع هدى الرسالة، إنما مقرر هذا لمصلحة الناس، كي يكونوا على علم بها، وكي لا يعتد بدفعهم بعدم العلم أو الإنذار، وكي يكونوا على بصيرة فيما يدعو الرسول إليه، وكي يكون التبليغ حجة عليهم حتى لا يؤخذ الناس بذنوبهم قبل تبليغهم وتبشيرهم وإرشادهم إلى سواء السبيل.

قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4].

---

(1) سورة النحل، الآية: 35.

(2) سورة القصص، الآية: 56.

(3) سورة المائدة، الآية: 67.

(4) سورة الإسراء، الآية: 15.

وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

ولا شك أن تقرير التبليغ إنما هو تطبيق للعدالة، إذ لا يسوغ مؤاخذة أحد ومساءلته عن الامتناع عن العمل أو القيام بعمل قبل التبليغ بوجوب الالتزام بالقيام بالعمل أو بالامتناع عنه، وعلى هذا الأساس فالله أخذ على نفسه العهد أنه لا يسأل أو يعذب أحداً قبل أن يبعث بشيراً ونذيراً يتلو آياته،

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾[2].

5 ـ العصمة:

إن الأنبياء والرسل سواء من كلف منهم بالتبليغ أو من لم يكلف تقتضي مهمتهم أن يكونوا كاملي الخَلْقَ والخلق، غير مصابين بعاهة أو بمرض عضال منفر، كالجذام والبرص، أو الجنون، كما تقتضي مهمتهم أن يكونوا سويّي الأخلاق والسلوك، بعيدين عن المعاصي منزهين عن اقتراف السيئات، وكل ما يحط من شأنهم، باعتبارهم من أكمل الناس خلقاً وأطهرهم نفساً وأحسنهم عملاً، فهم الذين اختارهم الله وهداهم وجعلهم قدوة وأسوة حسنة، في أقوالهم وأفعالهم، وأخلاقهم التي هي موافقة لطاعة الله.

قال تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[3].

---

(1) سورة المائدة: الآية: 19.

(2) سورة القصص، الآية: 59.

(3) سورة الأنعام، الآية: 90.

وقال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1].

فالأنبياء والرسل إذ هم متحلون بالأخلاق من صدق وأمانة وتفان في سبيل الله، نهم إذاً رواد خير وقدوة لهداية البشر.

قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[2].

وقال تعالى في شأنهم أيضاً:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[3].

وما دام هذا شأن الأنبياء والرسل وهذه مهمتهم، فهم إذاً لا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرماً، ولا يقترفون إثماً، بمعنى أنهم لا يرتكبون معصية بإذن الله، أي هم معصومون عن ارتكاب المعاصي قبل النبوّة أو بعدها، صغيرها التي لم يرد على فعلها وعيد شديد، وكبيرها، وهي الذنوب التي ورد على فعلها وعيد شديد، كالكفر والقتل والزنى، إلى غير ذلك من الآثام، إذ يستحيل عليهم فعلها لأن هذا محال عليهم، طالما أنهم القدوة الحسنة، لهذا فإن فعلهم لأي معصية، إنما يعني أمراً باقترافها اتباعاً لهم بما فعلوه، وهذا بالطبع مناف ومناقض لما بعثوا من أجله وهم الذين أفاض الله عليهم نعمة العصمة، بغية المحافظة على طهارتهم، وهيبتهم لتمكينهم من الاستمرار في دعوتهم وإبقاء الثقة فيهم حماية لعلو شأنهم وكمال خلقهم، كي لا تفقد الحكمة من إرسالهم، أو تنتفي الغاية من مهمتهم، فهم إذاً دائماً متميزون عن غيرهم من بني البشر

(1) سورة الأحزاب، الآية: 21.
(2) سورة الأنبياء، الآية: 73.
(3) سورة الأنبياء، الآية: 90.

يدركون بحسهم وحدسهم، أنهم مع الله في سرهم وعلنهم، يبصرون كل شيء بمنظار المعرفة، والهداية، فيرون في كل شيء آية تدل على وحدة وجود الله وجلال عظمته.

العصمة قبل النبوة وبعدها:

العصمة من الذنوب قد يختلف تحققها حسب ماهية الذنوب إذ قد تتحق العصمة بالنسبة للكبائر، وقد تكون محل خلاف بالنسبة للصغائر، على أنه من المسلم به عقلاً وعلماً، أن الأنبياء والرسل معصومون عن ارتكاب الكبائر قبل النبوة وبعدها بالإجماع، باعتبار أن تعمد ارتكاب الكبائر غير وارد ممن اصطفاه الله واختاره وبعثه نبياً أو رسولاً، أما بالنسبة للصغائر التي لا تخل بالمروءة، ولا تستلزم حسنة، فهي محل خلاف عند العلماء، وتعتبر محل اجتهاد، وهي أمور لم ينهض دليل قاطع يحسم الخلاف بين العلماء فيها، ومع ذلك، فإن جمهور أهل السنة والجماعة يجنحون إلى انتفاء ارتكاب الأنبياء للصغائر، خاصة بعد البعثة، وهكذا نخلص إلى أن الأنبياء والرسل معصمون قطعاً عن ارتكاب الكبائر والصغائر، سواء قبل النبوة أو بعدها، ذلك لأن الله اصطفاهم:

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾[1].

هذا، وغني عن البيان أن يكون الخطأ في الاجتهاد داخلاً في شمول الذنوب، ذلك لأن الاجتهاد أمر يدور حول إعمال الفكر بغية الوصول إلى رأي حول قضية ما، فضلاً عن أنه يدخل في شمول العبادات، إذ المجتهد يثاب على اجتهاده سواء أخطأ أو أصاب، ويبدو أنه بالنسبة للأنبياء أو الرسل لا يملكون الاجتهاد فيما هو من صميم الدين أو العقيدة إذ هذا الأمر منوط بالوحي الذي يقرر ما هو خطأ وما هو صواب وهو علم الله سبحانه وتعالى كما أن التصويب

---

(1) سورة ص، الآية: 47.

فيما هو مختلف فيه في هذا الشأن يصدر عن الوحي الذي يعتبر الدليل القاطع في الحسم فضلاً عنه أنه دليل على نبوة من ينزل عليه الوحي، وعلى هذا فإن العلاقة التوجيهية والإرشادية القائمة بين النبي والناس إنما هي علاقة إلزامية مستمرة ومتبعة ما دامت موافقة لطاعة الله سبحانه وتعالى، أما قبل النبوة فذهب البعض إلى أن الأنبياء كسائر البشر لا يؤمر أحد باتباعهم وطاعتهم إلاّ بعد نزول الوحي عليهم وتكليفهم بحمل الرسالة وتبليغها، ومع هذا فإن سلوكهم وسيرتهم قبل النبوة بعيدة عن أي انحراف أو اتباع للرذيلة على الرغم من إنهم غير معصومين، ذلك أن النبي قبل اصطفائه للنبوة غير مكلف بشرع ما وبهذا لا تكون العصمة بذات موضوع لأن العصمة تتحقق بغية عدم المخالفة لأوامر الله وطاعته وهذا الأمر لا يثار لأن النبي لم يكلف بشرع ما فلا مجال هنا للبحث في العصمة، لأن الذمة خالية ومجردة من التكليف[1].

وما دامت العصمة أثراً من آثار التكليف فإنها لا تنفي عن فطرة النبي أو الرسول أن يكون مثلاً أعلى في الخلق والسلوك، والتعامل، وهذا ما أثر عن سيرة الأنبياء جميعهم قبل النبوة، ويقول القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ما يلي:

«اختلف العلماء، هل وقع من الأنبياء صغائر من الذنوب، بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كل رذيلة فيها شين ونقص؟ فقال جمهور الفقهاء: إنهم معصومون من الصغائر كلها، لعصمتهم من الكبائر أجمعها، لأننا أمرنا باتباعهم، في أفعالهم وآثارهم وسيرهم أمراً مطلقاً من غير التزام قرينة، فلو جوزنا عليهم الصغائر لم يمكن الاقتداء بهم، إذ ليس كل فعل من أفعالهم يتميز مقصده من القربة والإباحة أو الخطأ أو المعصية، ولا يصح أن يؤمر المرء بامتثال أمر لعله معصية.. وقال بعض المتأخرين إن الله أخبر بوقوع ذنوب من

(1) عبد الرحمن حبنكة ـ العقيدة الإسلامية وأسسها، ص: 116.

بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصلوا منها وأشفقوا منها وتابوا. . . . وإذا كانت بعض النصوص قد شهدت بوقوع ذنوب منهم، فإن هذا لا يزري بمناصبهم، إنما وقعت منهم على جهة الخطأ والنسيان بل قد تلقاهم الله واجتباهم، وهداهم وزكاهم، واختارهم واصطفاهم»[1] مثال ذلك ما قيل في معصية آدم عليه السلام.

قال تعالى:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[2].

فالمعصية هنا وقعت قبل النبوة وعلى سبيل النسيان.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[3].

وجاء في تفسير المنار بخصوص مسألة آدم «ولنا أن نقول إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة، (فنسي ولم نجد له عزماً). . . والاتفاق هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة، وقد يكون الذي وقع من آدم نسياناً فسمي تفخيماً لأمره عصياناً. . والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة» قال تعالى مقرراً مبدأ هاماً:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[4].

وقال تعالى في صدد الدعاء لعدم مساءلة الناسي أو المخطئ.

---

(1) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج1 ص: 308 ـ 309.

(2) سورة طه، 121 ـ 122.

(3) سورة طه، الآية: 115.

(4) سورة الأحزاب، الآية: 5.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

هذا وإذا كانت العصمة مقررة للأنبياء والرسل فهل هذه العصمة واحدة بالنسبة لجميع الأنبياء والرسل؟

لا شك أن الأنبياء والرسل قد فضل الله بعضهم على بعض، وما ورد في القرآن يفيد ذلك إذ قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[2].

ومع ذلك فإن ما يرتكبونه قد يوهم بالظاهر أنه يتنافى مع عصمتهم بيد أنه لا يسوغ لنا أن نأخذ بظاهر الأمر دون البحث عن الحقيقة الدفينة وسنعرض بعض الأمثلة عن الأنبياء في هذا الخصوص:

نوح عليه السلام:

لقد سأل نوح عليه السلام ربه عن هلاك ابنه فيمن هلكوا في الطوفان معتبراً أن ابنه من أهله، ولم يكن ليعلم أن نسب ابنه قد انتفى بكفره وإعراضه عن دعوة الله، لهذا كان تساؤله عن هلاك ابنه معتمداً وعد الله بنجاته غير وارد، لأن الصلة الدينية، والنسب الروحي أقوى من صلة الدم، وبالتالي فلا يعتبر ابن نوح عليه السلام من أهله لأن عمل ابنه عمل غير صالح، وما دام كذلك، فالصلة النسبية غير قائمة بمعنى أنه ليس من أهله ولا يستحق النجاة الموعود بها.

قال تعالى:

﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ * قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ *

(1) سورة البقرة، الآية: 286.

(2) سورة البقرة، الآية: 253.

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[1].

فالله سبحانه وتعالى أشار إلى أن عمل ابن نوح عليه السلام غير صالح وبالتالي فقد استنكر الله سؤال نوح عليه السلام بما ليس به علم، ووعظه أن لا يكون من الجاهلين.

فنوح عليه السلام الذي لبث في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً يدعو الله مجاهداً في سبيله ويبذل حياته في سبيل الدعوة إلى الله، على الرغم من هذه المنزلة العالية عند الله، فقد تعثر في سلوكه في طلبه بنجاة ابنه وحيث أدرك ذلك بعد معاتبته من الله طلب المغفرة.

﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2].

إبراهيم عليه السلام:

إن إبراهيم عليه السلام شأنه شأن الأنبياء أيضاً. وعلى الرغم من رفعة مقامه وأنه خليل الله، فقد طلب المغفرة من الله عندما شعر بخطيئته، علماً أنه لم يشر إلى ماهية هذه الخطيئة، ولعل إبراهيم عليه السلام كان يستشعر في نفسه بالقصور، تجاه أداء رسالته وهو إذ اصطفاه الله:

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ

---

(1) سورة هود، الآية: 45 ـ 47.
(2) سورة هود، الآية: 47.
(3) سورة البقرة، الآية: 130.

ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ* وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(1).

لا شك أن هذا المقام المحمود لإبراهيم عليه السلام لا يعفيه من المسألة عن خطيئته إن أخطأ لهذا فقد ورد على لسانه وهو يطمع في الغفران.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾(2).

يوسف عليه السلام:

إن يوسف عليه السلام أحسن الله مثواه وعصمه عن الشر والفاحشة، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قصة يوسف إذ إن الإغراء الذي أقدمت عليه امرأة العزيز باء بالفشل، إذ راودته عن نفسه فغلقت الأبواب، وقد دعته إلى نفسه فأبى، وهو الذي أحسن الله مثواه، قال تعالى على لسانه:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(3).

وقد امتنع يوسف عليه السلام عن اقتراف المعصية وترفع عن الفاحشة ولعل هذا ما أثار امرأة العزيز فهمت بضربه، وقد هم بأن يرد عليها لولا أن رأى برهان ربه الذي منعه من أن يقدم على ذلك، وهو من أرباب النفوس الكريمة، لا سيما وأنه ليس من الوفاء أن يفعل ذلك مع أنها تولته بالرعاية، وهي زوجة رجل عظيم، ومع ذلك فقد أصرت على متابعته لولا أن الله سبحانه وتعالى قد صرف عنه السوء والفحشاء باعتباره من عباده المخلصين، ولا شك أن هذا يعتبر من باب العصمة، ومع ذلك فإن متابعة امرأة العزيز له لم تنته، وهي المصابة بالشهوة الجامحة، فآثر الابتعاد والخروج من المنزل تفادياً من هذا الموقف اللاأخلاقي، ولكنها مع ذلك أصرت على متابعته لترد لنفسها كرامتها وتثأر منه، قال تعالى:

---

(1) سورة النحل، الآية: 120 ـ 122.

(2) سورة الشعراء، الآية: 82.

(3) سورة يوسف، الآية: 23.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[1].

من هذه التصرفات نلاحظ أن العصمة كانت قائمة لدى يوسف عليه السلام، بخلاصه فإن هذا الموقف كان ولا شك بعناية الله ورعايته، والدلالة على ذلك تتمثل بما يلي:

1 ـ إن يوسف عليه السلام نبي آتاه الله العلم والحكمة وجزاه الله كما يجزي المحسنين

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

2 ـ إن موقف يوسف من المراودة والإصرار على الامتناع وتفادي المعصية لهو دليل قاطع على أن الفاحشة لا يمكن أن تتحدث بها نفسه مطلقاً، كيف لا، والله سبحانه وتعالى هو الذي أحسن مثواه، قال تعالى:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

3 ـ إن يوسف عليه السلام نبي، وهو من عباد الله المخلصين، فالله سبحانه وتعالى أبعده عن الفاحشة وصرف عنه السوء بما أهله من تربية وأخلاق وحماية، وهو من عباده المخلصين،

قال تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[4].

(1) سورة يوسف، الآية: 25.
(2) سورة يوسف: الآية: 22.
(3) سورة يوسف: الآية: 23.
(4) سورة يوسف: الآية: 24.

4 ـ إن محاولة يوسف عليه السلام للرد على امرأة العزيز التي همت بضربه وأذاه، حماه الله منها كما حماه من الوقوع بمثل تصرفها للرد عليها وهو الأذى والضرب عصمة له،

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1].

ومعنى الهم هنا الأذى والضرب وما شابه ذلك بدليل الآية:

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾[2].

موسى عليه السلام:

إن موسى عليه السلام قد انتصر لرجل من شيعته عندما شاهده يقتتل مع عدوه، فوكز عدوه فقضى عليه، وخلاصة القصة أن موسى عليه السلام عندما دخل المدينة على غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان أحدهما من شيعته والآخر من عدوه، ومن البديهي أن ينتصر للذي هو من شيعته إذا استغاثه، لأنه بشر يتمتع بالصفات البشرية وقد استجاب للضعيف الذي لم يكن ليقصد القتل، بيد أن فعله يجسد جريمة القتل الخطأ، وهو قتل غير مقصود لأن قصده يتجلى في منع الاعتداء فقط، ولم يكن لديه القصد الجرمي أو النية الجرمية ومع ذلك فإن القتل وقع خطأ وبهذا أدرك موسى أنه قد ظلم نفسه واستغفر ربه وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في القرآن فقال:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا

(1) سورة يوسف: الآية: 24.
(2) سورة غافر، سورة الآية: 5.

﴿مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾(1).

لا شك أن القصة هنا تعرضت لحق الله فقط ولما كان موسى عليه السلام لا يخرج عن الطبيعة البشرية، فإن الخطأ الذي صدر عنه قد غفر الله له، ونجاه من القوم الظالمين الذين كانوا يتآمرون عليه.

داود عليه السلام:

إن داود عليه السلام آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب، ومن كان بهذه الصفة يعزّ عليه، أن يصدر عنه خطأ في أصول التقاضي وإجراءاته أو التعجيل بالحكم قبل سماع رأي الطرف الآخر ـ وسماع أقوال الطرفين المتقاضين أخيراً. . . ولعل ما حصل من خطأ في أصول التقاضي لا يعتبر جريمة إنما هو خطأ في مسلك التقاضي، لا ينفي عنه العصمة، كما لا يجعل هذا الخطأ معصية، قال تعالى شارحاً هذه القضية:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ * إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾(2).

هذه القصة بما ورد فيها تكشف لنا عن مخالفة قضائية صدرت عن النبي داود، وقد أوتي العلم والحكمة، ومع هذا فإن القصة لم تكشف الأسباب البعيدة عن هذه المخالفة، فالنبي بشر قد يتعرض للخطأ فيما ليس هو من العقيدة

(1) سورة القصص، الآية: 15 ـ 17.

(2) سورة ص، الآية: 21 ـ 25.

وما ليس هو من الكبائر فالخطأ الوارد في أصول التقاضي قد يكون مرده إلى السرعة والخوف من الخصم الذين تسوروا المحراب، ودخلوا عليه بغتة، وفي جميع الأحوال فقد أدرك داود عليه السلام خطأه واستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفر الله له، ويبدو أن المعيار الأساسي في أصول المحاكمة، الإبعاد عن الهوى والتريث في التحقيق للوصول إلى الحقيقة، ولهذا بين الله تعالى القاعدة في تحري الحقيقة، قال تعالى مخاطباً نبيه داود، عليه السلام:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾(1).

سليمان عليه السلام:

إن سليمان عليه السلام قد ابتلاه ربه بمرض شديد شأنه شأن أي إنسان تجري عليه قواعد الحياة من صحة ومرض وحياة وموت، ولكنه مع ذلك يبدو أنه أمام المرض الذي تعرض له قد ضعفت مقاومته، ولم يتحمل الصبر على المرض الشديد، ولعل هذا ليس من شأن الأنبياء والرسل، ومع ذلك فإن هذا لا يعتبر معصية تجرده من العصمة.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۞ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(2).

محمد ﷺ:

عصم الله محمداً ﷺ قبل الرسالة في طفولته من لهو الطفولة، كما عصمه في شبابه من لهو الشباب، وهذا ما حدثنا به رسول الله ﷺ فقال:

---

(1) سورة ص، الآية: 26.

(2) سورة ص، الآية: 34 ـ 35.

«ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، وأسحر بها كما يسحر الشباب فقال: افعل، فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة، سمعت عزفاً فقلت: ما هذا؟ فقالوا عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلاّ حرّ الشمس، فعدت إلى صاحبي، فسألني فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة، فأصابني مثل أول ليلة، ثم ما هممت بسوء».

فالرسول الأعظم إذن معصوم طيلة مدة حياته، إذ لا يدور في خلده أو يخطر على باله، أو تحدثه نفسه بأي سوء، لكن هذا لا يعني أنه لا يخطئ في تصرفات ليست بموحى بها إليه، طالما أن الأمر متروك له تبعاً لتقديراته الشخصية، ولا شك أن هذا يعتبر من باب الاجتهاد الشخصي، فقد يتجاوز ما هو الأحسن إلى الحسن، وقد يكون هذا مما لا يدخل في باب الذنوب، ومع ذلك فقد غفره الله له، لأن المجتهد لا يؤاخذ على اجتهاده، قال تعالى:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾[2].

هذا وقد حدث لرسول الله ﷺ أن اجتهد في أمر (أسرى بدر) بعد أن

(1) سورة محمد، الآية: 19.
(2) سورة الفتح، الآية: 1 ـ 3.

استعرض رأي بعض الصحابة، وقد روى أحمد ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنه، قال: (لما أسروا الأسرى يوم بدر) قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر ما ترون في هؤلاء الأسرى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا بن الخطاب؟

فقال: لا والله يا رسول الله لا أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل (ابن أخيه) فيضرب عنقه، وتمكني من فلان ـ قريب لعمر ـ فأضرب عنقه، ومكن فلاناً من فلان فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قال عمر، فلما كان الغد جئنا فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، قلت يا رسول الله أخبرني، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك، فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما؟!

فقال رسول الله ﷺ: «**أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة لشجرة قريبة منه**» وأنزل الله عز وجل قوله:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ولقد ظن البعض أن هذا النص يشير إلى ارتكاب الرسول ﷺ ذنباً أو فعلاً

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 67 ـ 68.

محرماً، أو أنه عصى أمر الله، والواقع خلاف ذلك، إذ هذه المعاتبة من الله لنبيه ولأصحابه، لم يكن المقصود منها سوى التعليم والتنبيه، لأن المسلمين في ذلك الحين كانوا قلة، وكان عليه أن يتريث، حتى إذا كثر المسلمون واشتد عودهم وسلطانهم أنزل الله الآية الكريمة:

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1].

فهنا خير الله النبي والمسلمين في أمر الأسرى بقتلهم أو إطلاق سراحهم مقابل افتدائهم. فالرسول إذاً معصوم من الذنوب، محفوظ برعاية الله، فلا يمكن أي يصدر عنه ذنب يستحق عليه العقوبة، جل ما نزل على رسول الله بهذا الشأن، أو ما شابه لا يفيد الذنب، إنما هو من باب العتاب، أو التعليم، أو التوجيه، قال تعالى في شأن المتخلفين عن الغزو وقد قبل الرسول ﷺ أعذارهم دون تمحيص هذه الأعذار لمعرفة الكاذبين منهم من الصادقين:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[2].

وكذا في عتاب الله للرسول ﷺ في إخفائه أمر زواجه من زينب بنت جحش بعد طلاقها من متبناه زيد بن حارثة، وكان قد أمره الله بذلك ليقضي على تقليد، جاهلي. باعتبار أن هذه التقاليد كانت تحرم زواج زوجة المتبني، وكان الرسول ﷺ يتحرج مبدئياً من مخالفة هذه التقاليد، فنزلت الآية لرفع هذا الحرج بمعاتبة يسيرة، قال تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا

(1) سورة محمد، الآية: 4.
(2) سورة التوبة، الآية: 43.

لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا * مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[1].

وكذلك عاتب الله رسوله ﷺ عندما ضاق ذرعاً بطلب عبد الله ابن أم مكتوم وهو أعمى لا يبصر، وتتلخص الواقعة أن رسول الله ﷺ كان يدعو صناديد قريش للإسلام.

وأثناء ذلك حضر عبد الله ابن أم مكتوم وهو أعمى، وأخذ يقاطع رسول الله ﷺ قائلاً علمني مما علمك الله، ويكرر هذا القول، فتضايق الرسول ﷺ وامتعض وجهه وعبس لهذه المضايقة، فنزلت الآية الكريمة:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[2].

وهذا بالطبع لا يعتبر خطأ يرقى إلى مرتبة الذنب، لهذا كان رسول الله ﷺ كلما رأى عبد الله ابن أم مكتوم كان يقول له: (أهلاً بمن عاتبني فيه ربي) وواقع الأمر أن هذه الحادثة لم يقصد بها الرسول ﷺ إهمال سؤال الأعمى إنما رأى الفرصة المتاحة له الآن عظيمة إذ لو أسلم بعض عظماء قريش لأسلم معهم رجال كثيرون، وأن أسئلة الأعمى لا تفوته فهو حاضر معه فاشتغاله عنه بما هو أهم ليس إلاّ من باب الاجتهاد في نصرة الدين في ظاهر الأمر وغاية التقرب إلى الله، ومع ذلك فقد عاتبه الله، إذ الأولى أن يسمع إلى الأعمى ثم يلتفت إلى هؤلاء المعاندين.

هذه الوقائع التي ذكرناها جميعها لا ترقى إلى مرتبة الذنوب، وما هي إلاّ

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 37 ـ 38.

(2) سورة عبس، الآية: 1 ـ 10.

من قبيل الاجتهاد أو الهنات، التي لا ترقي إلى مرتبة المعصية، فضلاً عن أنها لا تتنافى مع العصمة، هذا وقد ورد في القرآن آيات عديدة تفيد المعاتبة لرسول الله ﷺ ولكنها جميعها لا تشكل أي ذنب أو معصية، ولا مجال لذكرها هنا وخاصة بعد أن شرحنا ووضحنا بعضها.

الفصل الثالث

الرسالة والوحي والمعجزات

مضمون الرسالة وفحواها:

علمنا أن الرسول إنسان أوحى الله إليه بعقيدة وبتشريع، وأمر بتبليغها للناس كافة، وهذه هي الرسالة، فهي تعني موضوع الوحي المنزل على النبي، والتي بها يضحى رسولاً، نتيجة تكليفه بتبليغ الرسالة. فهي تتصف إذاً بقيام علاقة بين الرسول والناس، وتهدف إلى هداية البشر إليها واتباع سواء السبيل باعتبار ان الإنسان ما وجد في هذا الكون عبثاً، بل إنه خليفة الله في الأرض خلق لطاعته واتباع أوامره واجتناب نواهيه، عملاً بقوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فالمرء إذاً محاسب إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ومن البديهي أنه قد لا يستطيع الاهتداء إلى سواء السبيل ذاتياً، فضلاً عن أن الإنسان قد يستطيع أن يدرك بحواسه الوجود المادي، بيد أنه عاجز بفعله عن إدراك المغيبات التي هي بطبيعتها ليست مشاهدة وحسية. لهذا كان لا بد لمعرفتها من رسول يدعو إلى

(1) سوة الذاريات، الآية: 56.

معرفة الله والإيمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء، وبهذا نستطيع القول إن العقل وحده لا يستطيع أن يصل إلى يقين دون هداية، فمن البديهي عدلاً وعقلاً إن يرسل الله رسلاً مبشرين ومنذرين، ليبينوا للناس أن الحق من ربهم، وأن هناك بعثاً، وحساباً، وثواباً، وعقاباً، وجنه وناراً، كلها حقائق ثابتة وهي من عالم الغيب الذي لا يطلع على غيبه أحد.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(1).

فالرسالة التي يدعو الرسول بها إلى الهداية من مقتضياتها ومضمونها أيضاً إقامة نظام ثابت وعادل بين الناس يحقق التعامل فيما بينهم على وجه يضمن استمرار الحياة، ويكفل سعادة البشر بما تهدف إليه من تحقيق العدالة، والحرية. والتكافل والتضامن الاجتماعي والمساواة في التعامل بين الناس على اختلاف أجناسهم وعروقهم إذ «**لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى**».

هذا النظام الثابت العادل الذي يدعو إليه يصدر عن الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وهو الذات الإلهية العادل والخبير وهو المنزل التشريع السماوي الصالح لكل زمان ومكان، لهذا كان لا بد من رسول يوصل هذا التشريع إلى البشر ليعملوا به ويهتدوا بأحكامه ـ أحكام الدين الإسلامي الحنيف ـ وإلاّ لبقوا في ضلال مبين.

قال تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(2).

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 179.

(2) سورة الروم، الآية: 30.

فالإنسان لوحده يتخبط في الضلال، ولا يستطيع الاهتداء لتشريع الله فاطر السموات والأرض، خالق هذا الكون ومدبره، فلا بد إذاً من مرشدين وهم رسل يرسلهم الله ليقوموا بها الأمر.

قال تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[1].

فالله إذن أرسل رسله لهداية البشر، وتوضيح تعاليم الله، التي أنزلها بكتبه الشاملة المنزلة من عنده، ليقيم بها القواعد والضوابط، والتي تحدد الحدود والحقوق وتبين الحق من الباطل، لتحكم سلوك البشر تبعاً لإرشادهم أو إلزامهم بها، للعمل بما أمر الله ونهى عنه. فالغرض إذاً من إرسال الرسل إنما هو الدعوة إلى عبادة الله، وإقامة دينه، وتوحيده في ربوبيته وأولوهيته، وأسمائه وصفاته.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

هؤلاء الرسل لم يرسلوا عبثاً، لأن الإنسان أصلاً لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى، إنما هو في هذه الدنيا مكلف بسلوك معين، كما هو ملزم باتباع أوامر الله ونواهيه، لأن الإنسان مساءل يوم البعث، لأن النفس الإنسانية فانية في هذه الحياة الدنيا. وإن لها حياة أخرى في الآخرة، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى بعذاب، وإن السعادة والشقاء منوطان بسلوك الإنسان وأعماله في الحياة الدنيا سواء كانت هذه الأعمال فكرية أو قلبية اعتقادية، أو بدنية سلوكية تقوم بها الجوارح كالعبادات والمعاملات[3] إذ النفس الإنسانية معرضة لسلوك طريق الكمال، كما

---

(1) سورة الحديد، الآية 25.

(2) سورة النحل، الآية: 36.

(3) محمد عبده رسالة التوحيد ص: 47.

أنها معرضة لاتباع نزوات الشهوات، ونزعات الإهواء، من خلال الصراعات القائمة حول تحقيق الحاجات على اختلاف أنواعها وضروبها، فالنفس الإنسانية، إذ هي نزاعة للخير، قد تكون تزاعة للشر.

قال تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1].

فالإنسان إزاء هذه التيارات النفسية والنزوعات والأهواء يقف عقله وفكره عاجزاً عن الاهتداء إلى الطريق السوي، وخاصة فيما هو من الغيبيات، فلا بد إذاً من الحاجة إلى التعليم والإرشاد، لتقويم الأفكار والنزعات، واختيار الطريق الأمثل في هذه الحياة الدنيا، بتحقيق السعادة في الآخرة، وبهذا تتحقق الطمأنينة، ولا شك أن هذا لا يتم إلاّ بالإرشاد والتعليم للإنسان الذي خلقه الله وعلمه البيان من قِبَل من اصطفاهم من مراتب النفس البشرية، والذين أطلعهم على مكنون رسالته ليحملوا الأمانة! فهو أعلم حيث يجعل رسالته: «يميزهم بالفطرة السليمة. . . فيشرفون على الغيب بإذنه ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه. . ثم يتلقون من أمره، أن يحدثوا عن جلاله، وما خفي من العقول من شؤون حضرته الرفيعة، بما شاء أن يعتقده العباد فيه، وما قدر أن يكون له مدخل في سعادتهم الأخروية وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد من عمله، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم، ولا يبعد عن متناول إفهامهم. وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادتهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم في إحماله، ويدخل في ذلك جميع الأحكام المتعلقة، بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات حتى تقوم بهم الحجة، ويتم الإقناع بصدق الرسالة،

---

(1) سورة الشمس، الآية: 7 ـ 9.

فيكونون بذلك رسلاً من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين»[1].

هؤلاء الرسل أقامهم الله مرشدين، وهادين ومتصفين بصفات تميزهم عن غيرهم من البشر، لا يشركهم فيها أحد تطمئن الناس إلى توجيههم وإرشادهم، إذ يعلمونهم ما شاء الله لهم من منهاج يصلح حياة الإنسان ويحقق سعادته، وبهذا فإن الإنسان بحاجة إلى الرسل ليبلغوه رسالة الله ليتبعها وبهذا يدرك الإنسان أنه مسؤول، ولولا ذلك لما تحققت مساءلته، ولكان له عذر في ذلك، فالرسل إذاً واجب تصديقهم والعمل بدعوتهم، باعتبارها مقدسة منزلة من عند الله عن طريق الوحي. فما هو المقصود بالوحي إذن؟

معاني الوحي وماهيته:

يختلف مفهوم الوحي ومضمونه تبعاً للمنظور النفسي أو الموضوعي أو الديني، فهو في جميع مدلولاته يدخل في شمول عالم الغيبيات التي يفضي الإيمان بها، إذ ليس للوحي في المفهوم النفسي بعد مادي محسوس وملموس، إنما في المفهوم الإسلامي يتجسد في الرسالة المنزلة على الرسول، ولمعرفة مضمون الوحي في المنظور الإسلامي يقتضي أن نستعرض مختلف معاني الوحي بصورة عامة:

الوحي: يقصد به حصول علم خفي سريع بشيء ما على وجه السرعة سواء بالإيمان أو بالكلام الخفي أو الظاهر، أو بالإلهام النفسي وسواء تم ذلك ذاتياً بدافع الفطرة أو بإشراقاتها عن طريق إحساس خفي. والوحي مصدر من ذلك المكتوب والرسالة ما يتلقاه الأنبياء. وقد أشار القرآن الكريم إلى مفهوم الوحي اللغوي في آيات عدة كقوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام.

---

(1) محمد عبده المرجع السابق ص: 49 ـ 50.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1].

فالوحي هنا يفيد الإيماء والإشارة، وقد يكون المقصود بالوحي الإلهام النفسي كقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[2].

كما قد يكون المعنى المقصود بالوحي الضلال والوسواس كقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾[3].

الوحي في المفهوم الشرعي:

الوحي: هو إعلام أو إخبار غيبي من الله يتم بواسطة أو بغير واسطة لنبي تخصيصاً بالرسالة الإلهية بعلم أو عقيدة أو شرع على وجه اليقين يتلقاه خارجاً عن إرادته وكيانه النفسي، لإبلاغه ونشره هداية للناس ووفقاً لما أنزل عليه دون تبديل أو تحريف، قال تعالى في تحديد مفهومه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4].

هذا وقد عرفه بعض علماء المسلمين: «إنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه» وعرفه محمد عبده بقوله:

«إنه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه، أو بغير صوت ويفرق بينه وبين

---

(1) سورة مريم، الآية: 11.
(2) سورة النحل، الآية: 68.
(3) سورة الأنعام، الآية: 121.
(4) سورة الشورى، الآية: 52.

الإلهام فالإلهام وجدان تستقيه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والشرور»[1].

يتضح مما ذكرنا أن الوحي يتحدد كما يلي:

أولاً: الوحي إعلام بإخبار صادر عن الله سبحانه، فهو ليس بأمر ذاتي داخلي ينبعث من نفس الرسول أو النبي، أو أنه حديث نفسي، ولو كان كذلك أي من باب الوحي النفسي أو المكاشفة، لما حصل للرسول ﷺ أثناء نزول الوحي أو التلقي ما حصل له من الخوف والفزع، بل هو تلقّي لحقيقة خارجية لا دخل لها بحديث النفس أو الإلهام أو الإشراق، ولا شأن له بالتأمل والتفكير، بدليل أن رسول الله ﷺ فوجئ بالرسالة، دون توقع سابق منه، وقد اعتراه الخوف والفزع والانفعالات النفسية اللا إرادية التي لا سبيل إلى اصطناعها أو تمثيلها.

ثانياً: إن الوحي يتم بواسطة الملاك جبريل ويؤكد ذلك أن رسول الله ﷺ رأى جبريل لأول مرة، وكان بالإمكان أن يتم الوحي من وراء حجاب، وقد اقتضت حكمة الله، أن يفصل بين شخصية النبي محمد ﷺ قبل البعثة، وشخصيته كرسول بعد البعثة، وهذا يثبت لنا أن الرسالة المتضمنة العقيدة والتشريع، لم تقم في ذهن رسول الله ﷺ قبل بعثه رسولاً كما لم يكن يرى أنه سيكلف بالدعوة إلى العقيدة.

ثالثاً: إن محمداً ﷺ فوجئ بالوحي الإلهي الذي سبق أن أنزل على الأنبياء الذين سبقوه، وبالتالي فهي رسالة من عند الله. وليست بإشراق نفسي مصدره التأمل والتفكير، ولو كان كذلك، لما اعترى رسول الله ﷺ القلق الذي وصل إلى درجة الخوف على نفسه عندما فوجئ وهو في غار حراء بجبريل عليه السلام يضمه إليه بقوة ثلاث مرات، قائلاً له في كل مرة، اقرأ فيقول: محمد ﷺ ما أنا بقارئ.

---

(1) محمد عبده رسالة التوحيد ص: 52.

فيقول له:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾(1).

هذا ومما يؤكد أن الوحي ليس بتأمل فكري ذاتي من محمد ﷺ، أن الوحي قد انقطع عنه مدة ستة أشهر أو يزيد، إذ احتجب جبريل عليه السلام عنه، مما أثار هذا في نفس الرسول القلق واستبد به الرعب من أن يكون قد صدر عنه ما أدى إلى هذا الانقطاع، وبقي هذا الانقطاع إلى أن عاد الملك الذي رآه في غار حراء مرة أخرى قائلاً: «يا محمد إنك رسول الله إلى الناس» فعاوده الخوف والجزع مرة أخرى وقد أنزل الله تعالى قوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾(2).

رابعاً: إن نزول الوحي على محمد رسول الله ﷺ كان من أمور الغيب الذي أطلع الله عليها رسوله.

قال تعالى:

في خصوصية الوحي:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾(3).

هذا ولم يكن جبريل إذ ينزل الوحي على محمد ﷺ ليراه أحد إذ إن الله خص رسوله محمدا ﷺ بقوة الإبصار ما لم يخص به غيره فالناس عامة ممتعون بالبصر، ولكن الأبصار تختلف نسبياً بين شخص وآخر، وهناك حد مألوف يرى فيه المرء الأشياء، وما زاد عنه فلا يراه، ويعتبر ما لا يراه أنه معدوم في تقديره،

---

(1) سورة العلق، الآية: 1.

(2) سورة المدثر، الآية: 1 ـ 2.

(3) سورة آل عمران، الآية: 44.

أو غير مرئي، وأن عدم استطاعة العين المجردة من رؤية أشياء ما، ليس معناه أن هذه الأشياء معدومة، كما هو الشأن في الأشعة الضوئية دون الحمراء، وما فوق الأشعة البنفسجية، إذ هذا النوع من الأشعة لا يرى بأعيننا المجردة، إذا كان الأمر كذلك فليس على الله بمستحيل أن يخص الرسول برؤية جبريل عليه السلام، ولا يخص بهذه الرؤية غيره، طالما أنه من المسلمات أن هناك تفاوتاً في قوة الإبصار خصّ الله بها عباده.

خامساً: الوحي رسالة إلهية بعلم وعقيدة وشرع بدليل أن الرسول ﷺ كان ينزل عليه الوحي بواسطة جبريل، موضوعه القرآن الكريم في لفظه وفحواه، وهو اليقين، المتضمن لرسالة الله علماً وعقيدة وشريعة، ولا شك أن هذا الوحي أي القرآن نزل منجماً فكان الرسول ﷺ إذا سئل عن أشياء وأمور من صميم العلم الإلهي أو العقيدة أو الشريعة لا يجيب عليها، بل ينتظر، حتى إذا أوحى الله إليه بالجواب بالآية التي نزل في شأنها، يخبر السائل بذلك، وهذا ما يؤكد أن موضوع الوحي كان القرآن الكريم، كما يؤكد هذا أيضاً أن هناك من الأمور والأحكام ما لا يمكن لأميّ مهما أوتي من ذكاء أن يجيب عليها، وعلى الأخص القصص الواردة في القرآن في شأن الأنبياء والرسل، كقصة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، وقصة مريم، مع وليدها عيسى عليه السلام، وقصة أم موسى، التي ألقت وليدها في اليم، وقصة فرعون.

كل هذه تعطي البرهان على أن القرآن إن هو إلاّ كلام الله موحى به ومنزل على محمد رسول الله ﷺ، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

(1) سورة العنكبوت، الآية: 48.

سادساً: الوحي نزل وهو الحق المبين واليقين لا يعتريه الشك بصحة التلقي، باعتبار أنه أمر من الله، وقد سبق أن أنزل الله على أنبيائه من الكتب ما شاء الله، قال تعالى:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

هذا ويعطينا السلوك الواجب الاتباع في شأن الوحي هو عدم التشكك والافتراء، إنما يجب التسليم به لأننا أمام خبر يقيني صادر من الله سبحانه وتعالى، ووصل النبأ بالتواتر على أن محمداً ﷺ رسول أوحي إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل عليه السلام، وإنه ليس بحديث تلقائي صدر من رسول الله عن تأمل أو تفكير وهو الأميّ. الذي لا يقرأ ولا يكتب، كما أنه ليس من قبيل الإلهام الذاتي أو الإشراقات النفسية، وهو الصادق الأمين الذي لم يصدر عنه أي شائبة في سلوكه، فكل ما يتعلق بالوحي كان بأمر الله دون أن يكون لإرادة الرسول ﷺ أي اختيار أو دخل في لفظه أو مضمونه، فهو يخبر به فيبشر ويدعو الناس إليه كما أنزل مجرداً عن أي تبديل أو تحريف ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ

---

(1) سورة يونس، الآية: 94.
(2) سورة النجم، الآية: 4.
(3) سورة الكهف، الآية: 27.

هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1].

وهكذا نجد أن الوحي هو الحق وهو الكتاب المبين.

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[2].

هذا والوحي المنزل على الرسول لم يكن فريداً بل له سوابق عديدة فقد خص الله به أيضاً أنبياءه ورسله.

قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾[3].

ظاهرة الوحي وأنواعه:

يرى بعض الأوروبيين أن الوحي من باب المعلومات والأفكار والآمال، التي تولد في النفس نتيجة لأعمال الفكر والتأمل، أو نتيجة لإلهام عقلي يفيض من ذات النفس فيعكس اعتقاده على مخيلته وسمعه وبصره فيرى ملاكاً يحدثه ويعي بما حدثه به، هذا المفهوم عند هؤلاء إنما المقصود به الوحي النفسي الذي ينبع من النفس نتيجة للتأمل وإعمال الفكر وهو في الحقيقة مكاشفة النفس لصاحبها بمعلومات ذاتية عن موضوع قابل للتفكير ينشغل العقل به بحثاً عن

---

(1) سورة يونس، الآية: 15.
(2) سورة فاطر، الآية: 31.
(3) سورة النساء، الآية: 163.

المعرفة، فتكشف النفس أحياناً هذه المعرفة، بإلهام ذاتي نتيجة لهذا التفكير.

هذا المفهوم للوحي لا يرافقه عادة أي ظاهرة بصرية أو سمعية أو عصبية، فتبقى المكاشفة ذاتية وهي ليست بمعرفة يقينية، بل احتمالية، لأنها ذاتية، وقد لا يستطيع الشخص بالمكاشفة النفسية أن يقيم الدليل أو البرهان على صحة هذه المكاشفة، بينما نلاحظ أن الوحي بمفهوم القرآن إنما هو يقين مطلق مصحوب بظواهر حسية بصرية أو سمعية أو عصبية، فعند نزول الوحي على محمد ﷺ رأى ملكاً وهو جبريل وسمع ما خاطبه به وقد اهتزت أعصاب الرسول ﷺ واعتراه الخوف والفزع، فضلاً عن أن المعرفة التي نقلها له الملاك إنما هي خارجة عن شخصية الرسول، فهي ليست بذاتية، إنما هي طارئة سرعان ما يأمر الرسول صحابته بتسجيلها. ولا شك فرق كبير بين ما هو من كلام الله، وهو ما أوحى به إليه، وبين حديث الرسول ﷺ الذي يستودعه ذاكرة صحابته من قول، أو فعل، أو تقرير، وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى مفهوم الوحي ومدلوله، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

في ضوء هذه الآية، نجد أن الوحي للأنبياء والرسل على ثلاثة أنواع.

النوع الأول:

الوحي من قبل الله بمفهوم النفث أو الإلقاء في القلب وفي النفس بصورة ما، هذا النوع من الوحي يتم بإلقاء العلم أو المعرفة أو التكليف بالإلقاء الإلهي أو في الرؤيا، أو في المنام، هذا النوع يوحي به إلى النبي وحياً، وهو المقصود بما أشارت إليه الآية:

(1) سورة الشورى، الآية: 51.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾[1].

ومن هذا القبيل الإيحاء إلى الحواريين، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[2].

فالوحي هنا يفيد صدور كلام موجه إلى الحواريين بكيفية ما، والذي أثبت حصوله في جواب الحواريين وامتثالهم للإيمان، وإدراكهم التيقن له الناجم عن الوحي، ولا يشترط أن يكون مصاحباً له فإن التيقن بصحة ظاهرة ما ليس مصاحباً في إدراكنا لوقت مشاهدتها، بل هو ينتج كصدى عقلي يصدر عنا ويترتب على هذا أن يقين النبي، في مصدر المعرفة الموحاة لا يجيء مع الوحي نفسه، ولا يلف جزءاً من طبيعته بل إنه في صورته الكاملة من عمله الشعوري كرد فعل طبيعي لهذا الشعور، إزاء ظاهرة خارجية[3].

وعلى هذا فإن هذا النوع من الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بصور مختلفة، منها النفث والإلقاء في القلب، وقد روي في الحديث كما رواه أبو نعيم في الحلية «إن روح القدس نفث في روعي، إن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب».

النوع الثاني:

الوحي من قبل الله من وراء حجاب وهو صدرو الكلام من غير رؤية المتكلم.

وهذا النوع من الوحي هو الذي حصل لموسى عليه السلام، عندما أمره الله أن يستمع لما يوحي إليه قال تعالى:

---

(1) سورة الشورى، الآية: 51.

(2) سورة المائدة، الآية: 111.

(3) مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ص: 143 دار الفكر 1981.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى * وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾[1].

هذا الوحي إذاً تم بتكليم موسى من وراء حجاب دون أن يرى موسى عليه ربه، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[2].

النوع الثالث:

الوحي من قبل الله الملقى بواسطة رسول ملك ترى صورته، ويسمع كلامه أو لا ترى صورته ويسمع كلامه.

هذا النوع من الوحي أشارت إليه الآية فيما يتعلق بالوحي الذي يتم بواسطة رسول،

قال تعالى:

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾[3].

هذا الرسول هو الملك جبريل عليه السلام، إذ يتمثل رجلاً كلّم محمداً ﷺ وهذا ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «إن الحارث بن هشام سأل

---

(1) سورة طه، الآية: 11 ـ 15.

(2) سورة الأعراف، الآية: 143 ـ 144.

(3) سورة الشورى، الآية: 51.

رسول الله ﷺ فقال: يا رسول كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشدّ علي ـ فيفصم عني، قد وعيت ما يقول، وأحياناً يتمثل الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. وقالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً[1].

وروى البخاري في حديث عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت، زملوني، زملوني، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[2].

فالوحي بهذه الصورة إنما هو وحي نزل بواسطة جبريل عليه السلام، وهي الصورة التي نزل بها القرآن على محمد ﷺ.

قال تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(1) البخاري ج1: كتاب كيف كان بدء الوحي.
(2) سورة المدثر، الآية: 1 ـ 5.
(3) سورة الشعراء، الآية: 192 ـ 195.
(4) سورة البقرة، الآية: 97.

هذا الوحي هو من أكمل أنواع الوحي، وهو الوحي الذي نزل على سيدنا محمد رسول الله ﷺ ويحسن بنا بعد هذا أن نعرض كيفية بدء نزول هذا الوحي.

موضوع الوحي ونزوله على محمد رسول الله ﷺ:

جاء الوحي بالكتاب المبين، وقد فصلت آياته من لدن حكيم خبير ليزهق الباطل ويحق الحق ويقضي على الظلم والفساد، وينقي العقول من لوثة الانحراف والكفر، والضلال،ويقضي على الأعراف والتقاليد الفاسدة، التي قيدت العقول ودمرت الأفكار، وقضت على حرية الإرادة وأصالة التفكير، جاء الوحي ليرسم الطريق القويم، ويهدي الناس إلى الصراط المستقيم، الذي أنعم الله به على عباده، ليغير العقول وينقي الضمائر ويسمو بها إلى درجات الرقي والحضارة وليحقق الكمال الإنساني والسعادة في الدنيا والآخرة، من خلال شريعة سمحة ونظام اجتماعي يقوم على التكافل والتضامن، والتعاون، كل هذا يتناوله موضوع الوحي وهو الكتاب المبين، الذي وضح وحدد للناس مفهوم الدين الحنيف، القائم على أساس العقيدة الإسلامية ومعرفة الله وصفاته والإيمان به كل هذا لتقويم الإنسان وتعريفه بالخير والشر، ومركزه من هذا الكون وعلاقاته في هذه الحياة، ومدى استمرار حياة الإنسان في هذا الكون ومساءلته في الآخرة عند بعثه، والحساب، والثواب والعقاب، ومدى أهمية العقل والهداية من هذه الأمور جميعها، كل هذه أتى بها القرآن كلام رب العالمين، أوحى به إلى محمد رسوله وصفيه الأمين،

قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[1].

---

(1) سورة لقمان، الآية: 27.

هذه المسائل جميعها وردت بأسلوب غاية في البلاغة والوضوح فقد أشار إليه القرآن:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

هذا الوحي بهذا المضمون في قوته وبلاغته في لفظه وفحواه وفي إعجازه، لا يصح عقلاً أن يكون من يدعو إليه كاذباً في حديثه عن الله، أو ينسب هذا الكلام إليه، لاستحالة ذلك إنما هو كلام الله يوحي منه شرعه للناس، فهو كلام حق لا يقوى الباطل على دحضه، لأن الباطل لا أثر له في العقول ولا ديمومة له، بل إن هذا الوحي تشريع سماوي يهدف لإقامة حضارة إنسانية ويؤيد هذا ثبوت الشرعية واستمرارها بأمر الله.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2].

وقوله تعالى بما يؤيد أنه من عند الله:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[3].

إلى جانب ما ذكرناه فإن للوحي مهمة أخرى تربوية، إذ إنه يتضمن أيضاً هدفاً آخر وهو إعداد الرسول محمد ﷺ لفهم موضوع الوحي، وهو الظاهرة القرآنية بمضمونها وأهدافها، وإن كان هذا الإعداد لا يؤلف جزءاً من الوحي، لأن القرآن موضوع الوحي قد عالج في أحكامه وأسسه ومبادئه ما يجب أن تكون عليه الحياة الإنسانية وما تقتضيه من تنظيم خلال تشريع يضمن سعادة المرء في الدارين، ومن خلال قواعد تنظيم علاقات الناس على أحسن وجه وهكذا نجد أن القرآن عالج كل ما في الكون بما فيه النظم الفلكية التي يقوم عليها الكون،

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.
(2) سورة الحجر، الآية: 9.
(3) سورة النساء، الآية: 82.

وما في هذه الدنيا من مخلوقات، كل ذلك بشمولية حيناً وبتفصيل حيناً آخر، وبتتبع واستقصاء لكل شيء قال تعالى:

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

كما تعرض القرآن إلى خلق الله للكون وتنظيمه وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء إنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى،

قال تعالى:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾[2].

كما أشار الله إلى نظام الكواكب والنجوم التي تسبح وتدور في أفلاكها ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[3].

كل هذا يدلنا دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى في الوحي الذي أنزله على رسوله تناول عالم الإنسان، والحيوان، وعالم البحار والسماء في مضمونها، ومفاهيمها، ونظمها، وقد رسم الصورة المثلى للنظام الكوني، والصورة المثالية للإنسانية التي تهدف لإقامة حضارة، من خلال سلوك الإنسان بما يقتضيه من علم وتعلم، وأخلاق، مستقصياً كذلك الطبيعة البشرية، والنفس الإنسانية، وما يعتريها من خير وشر، بأخطائها وفضائلها في ممارساتها للأعمال، ثم أعطي، المثل الأعلى للإنسان الكامل في حياة الأنبياء والرسل والشهداء والأبرار، فالوحي والحق يقال إنه صدى لما في هذا الكون من موجودات من روح ومادة، وحياة وموت، ودنيا وآخره، وما تقتضيه هذه الأمور

(1) سورة الأنعام، الآية: 38.
(2) سورة لقمان، الآية: 16.
(3) سورة يس، الآية: 40.

كل هذه لا يمكن لعقل بشري أن يتصور أنها من فكر محمد ﷺ إنما هي من وحي الله أنزلت عليه فهي من عالم الغيب، من خلال إقامة سلطان التوحيد بمعرفة الله والإيمان به، هذا الوحي نزل بصياغة تعتبر ثروة لغوية معجزة بألفاظها ومدلولاتها، مما يعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، هذا الوحي بهذا المضمون المعجز يتصف بخصائص هامة فما هي هذه الخصائص؟

خصائص الوحي:

يختص الوحي إلى جانب الموضوع الذي ذكرناه آنفاً بخصائص هامة، سواء من حيث التلقي، أو من حيث زمانه ومكان نزوله أو من حيث الحامل لهذا التلقي، هذه الخصائص هي:

الخاصة الأولى: في أصول التلقي ومدته:

لقد تلقى محمد رسول الله ﷺ الوحي منجماً عن طريق جبريل عليه السلام على امتداد ثلاثة وعشرين عاماً متقطعاً على فترات طويلة وقصيرة حيث ينقطع أحياناً، وقد يعتريه أمراً أو سؤالاً فينتظر الوحي ليتخذ القرار أو الحل بأمر من الله، وقد يطول أمر الانتظار شهراً أو أقل ويبقى الرسول ﷺ متحيراً منتظراً، حتى يهبط عليه جبريل، فيتلقى منه الحل أو الجواب من الله، كما حصل له في حادثه الإفك، التي لم يرد فيها الوحي إلاّ بعد شهر وفي جميع الأحوال كان الوحي منجماً، ولعل الحكمة في نزول الوحي منجماً، هو أن يعي الناس ما فيه ويتفهموه على مدى هذا الزمن الطويل، وهذا الأسلوب، إنما هو أسلوب تربوي يمكن الناس من تقويم سلوكهم واتباع أسس الوحي وتعاليمه خطوة خطوة، في ضوء ما يعرض من مشاكل، أو أحداث، أو وقائع تحتاج إلى حل، أو تشريع، أو حسم، وانتظار الحل بتوقيع هبوطه من السماء ادعى إلى ترسيخ السلوك وتقييمه وادعى إلى استقراره وثبوته ودراسته، في ضوء كل حدث، أو أمر،

وهذا ما يأتلف مع طبيعة الإنسان ومدى استعداده للتقبل الكلي للإصلاح أو للتقبل التدريجي تبعاً للعصر وواقع الأمة، لهذا كان نزول الوحي وتلقيه منجماً قد ساعد على نشر الدعوة، وتفهم تعاليم الدين الحنيف، فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان بمثابة وثيقة تاريخية مقدسة، لا يمكن أن يحقق أهدافه لأن نزوله منجماً يبقي فعالية الدعوة ونشاطها قائماً ومستمراً، فضلاً عن أن الأحداث بوقوعها وانتظار حلولها أعطى للحركة التاريخية الاجتماعية والاقتصادية والروحية دوام فعاليتها وتفهمها، كما ساعد على نجاحها بمراقبة الإرشاد ومتابعة التطبيق، فالزمن إذاً عامل هام في الاستقرار والثبات في نشر الدعوة وبزوغ الحضارة.

قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[1].

بهذا الأسلوب الإلهي وجد الوحي طريقه إلى قلوب الناس تبعاً للأحداث المحيطة بهم والمعاملات القائمة، وبالحلول التي أنزلها الله على رسوله سواء كانت بآية أو سورة مع مراعاة الاستعداد النفسي لحالة التلقي وزمنها، على الوجه الذي حض به الله ورسوله، وبهذا حقق الوحي دوره الهام إزاء طبيعة الإنسان، كما حقق دوره في قلب المجتمع الجاهلي وخلق المجتمع الإسلامي الذي جمع بين الدين والدنيا على مدى نزوله وحتى يومنا هذا. فكان الوحي خلال هذه المدة الطويلة مدرسة مفتوحة للعالم أجمع تتلمس على الأخص فيها الأمة الإسلامية طريقها وخطاها وأعمالها وأهدافها، وهي محوطة بعناية الله ورضاه. طالما هي تطبق تعاليم هذه المدرسة.

(1) سورة الفرقان، الآية: 32.

الخاصة الثانية: في حامل التلقي وشخصيته:

لقد اختار الله محمداً ﷺ واصطفاه من الناس رسولاً، كما سبق أن اصطفى رسلاً من قبل.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فالله إذ يصطفي أنبياءه ورسله الذين يتلقون الوحي، إنما يعدهم إعداداً خاصاً حيث يختارهم تبعاً لقواعد الإنجاب، من أجداد وآباء، لهم صفات خاصة خَلقاً وخُلقاً، فيعدّ بالتالي رسله بعد ميلادهم إعداداً تربوياً وسطاً وبيئة، ويعدهم على عينه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[2].

ويصطفيهم لنفسه ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[3].

فالله إذاً يصطفي رسله من خيرة الناس طالما أنه يعدهم، فهو يهيئ ماضيهم، ويرسم حاضرهم بطفولتهم وشبابهم وشيخوختهم، باعتبارهم حاملي الوحي، وناشريه والداعين إليه، لهذا كان من المسلم به أن يكونوا ذوي حسب وقوة ومنعة في قومهم وعشيرتهم، وإلى هذا الاصطفاء أشار رسول الله ﷺ فقال فيما روي عن الإمام مسلم:

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

هذه التهيئة للأنبياء والرسل، إنما هي صنع الله وفقاً لما أرادهم، فامر الله

(1) سورة آل عمران، الآية: 33.
(2) سورة طه، الآية: 39.
(3) سورة طه، الآية: 41.

مقضى قبل ميلادهم، وهذه القاعدة المتبعة في اختيار الأنبياء والرسل وهذا ما أشار إليه بالنسبة لعيسى عليه السلام، وهو ليس بحكم خاص، إنما هو حكم عام بالنسبة لجميع الأنبياء والرسل، قال تعالى:

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾(1).

هذا ومن الجدير بالذكر أن حاملي التلقي يتميزون بخصائص منفردة وعلامات مميزة وهي:

1 ـ إن الأنبياء والرسل قبل الوحي مهيأون بخلق عليا، ومتمتعون بسلوكية ممتازة مجنبون المذمومات ومنزهون عنها، ويشير ابن خلدون في مقدمته إلى ذلك فيقول:

«اعلم أن الله سبحانه وتعالى اصطفى من البشر أشخاصاً خصهم بخطابه وفطرهم على معرفته، وجعلهم رسائل بينه وبين عباده، يعرفونهم بمصالحهم، ويحرضونهم على هدايتهم، ويأخذون عجزاتهم عن النار، ويدلونها على طريق النجاة، وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار للكائنات المغيبة عن البشر، التي لا سبيل إلى معرفتها إلاّ من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلاّ بتعليم الله إياهم قال ﷺ «ألاّ وإني لا أعلم إلا ما علمني الله» وأعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصدق، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوة.

وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غشية أو إغماء في رأي العين، وليست منهما في شيء، وإنما هي الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بإدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكلية، ثم يتنزل إلى المدارك البشرية،

---

(1) سورة مريم، الآية: 21.

إما بإسماع دوي من الكلام فيتفهمه، أو يتمثل له في صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم يتجلى عنه؛ تلك الحال وقد وعى ما ألقى إليه.

ومن علاماتهم أيضاً دعاؤهم إلى الدين والعبادة من صلاة وصدقة وعفاف، وقد استدلت خديجة على صدقه ﷺ بذلك، وكذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه، وفي الصحيح أن هرقل حين جاءه كتاب النبي ﷺ يدعوه إلى الإسلام أحضر من وجد ببلده من قريش، ومنهم أبو سفيان ليسأل عن حاله، وكان فيما سأل أن قال: بم يأمركم فقال أبو سفيان بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه، فقال: «إن يكن ما يقول حقاً فهو نبي، وسيملك ما تحت قدمي هاتين».

ومن علاماتهم أيضاً أن يكونوا ذوي حسب في قومهم، وفي الصحيح، «ما بعث الله نبياً إلاّ في منعة من قومه» وفي رواية أخرى «في ثروة من قومه» استدركه الحاكم على الصحيحين، وفي مسألة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال: «كيف هو فيكم»؟ «قال أبو سفيان» هو فينا ذو حسب «قال هرقل» وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه من أذى الكفار حتى يبلغ رسالة ربه ويتم مراد الله من إكمال دينه وملته ومن علاماتهم أيضاً وقوع الخوارق لهم شاهدة بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع في غير محل قدرتهم»[1].

وهكذا يلاحظ أن الأنبياء والرسل قد هيئوا وزودوا بتربية عالية وعناية من الله بحيث أضحوا أهلاً لتلقي الوحي.

أما عن مكان نزول الوحي فإن هذا سنتعرض إليه عند بحث بدء ظهور الوحي.

---

(1) ابن خلدون المقدمة ـ تحقيق علي عبد الواحد.

الخاصة الثالثة: في زمن نزول الوحي ومكانه:

إن الوحي المحمدي مرتبط بدؤه وزمانه ببعثة محمد ﷺ، رسول الله وقد امتد الوحي مدة ثلاثة وعشرين عاماً ثم فتر ثم عاد الوحي مستمراً وكان الوحي عامة يتلقاه ماشياً أو في الخلاء أما بدء الوحي بالنسبة لمحمد ﷺ فقد جاءه وهو بغار حراء وعلى هذا نستطيع القول إن الوحي لا يتقيد نزوله بمكان معين إنما ينزل عندما يكون النبي أهلاً لتلقّيه، كما حصل لموسى عليه السلام، عندما كان بالواد المقدس وهي البقعة المباركة.

قال تعالى:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ * إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ * إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ * إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[2].

هذا الوحي كان مباشرة إذ إن موسى تلقاه من ربه إذ سمع كلامه مباشرة دون وسيط بينما يلاحظ أن الوحي المحمدي كان ينزل على محمد ﷺ بواسطة

---

(1) سورة طه، الآية: 9 ـ 16.

(2) سورة القصص، الآية: 29 ـ 30.

جبريل عليه السلام وهو رسول الوحي، قال تعالى في هذه الخصوصية مبيناً مهمة جبريل عليه السلام بأنه رسول مطاع أمين:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾(1)

فالوحي إذن كان ينزل على رسول الله بطريق جبريل عليه السلام وكان ينزل في أماكن مختلفة فقد نزل عليه وهو يسير في شعاب مكة، كما روى الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله:

«بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه، فرجعت فقلت زملوني، زملوني، فأنزل الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ * وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾(2).

هذا الوحي إذاً لم يكن مقيداً بزمان أو مكان، بل مرتبط بحالة نفوس الأنبياء وأهليتها للتلقي، والله الذي ربى نفوسهم ورعاها، فهو أعلم بالزمن المؤهل لتلقي الوحي، بعد أن يتم تهيئة النفوس فينزل الوحي، قال تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾(3).

ويحسن بنا هنا أن نستعرض ما رواه البخاري عن كيفية بدء الوحي وتدرجه إلى ما وصل إليه أخيراً وهذه الكيفية تعتبر مستنداً صحيحاً بهذا الخصوص.

أخرج البخاري عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

«أول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا

---

(1) سورة التكوير، الآية: 19 ـ 21.
(2) سورة المدثر، الآية: 1 ـ 5.
(3) سورة الشعراء، الآية: 193 ـ 195.

يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد قبل أن ينتزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ.

قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني.

فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد.

فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني.

فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ * ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: «لا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخنا كبيراً قد عمي.

---

(1) سورة العلق، الآية: 1 ـ 5.

فقالت له خديجة: يا بن العم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّله الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ: أو مخرجي هم؟

قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك انصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، ثم فتر الوحي.

أثر ظاهرة الوحي على شخصية محمد ﷺ:

بعد أن بلغ محمد الأمين، الكمال في جسمه وعقله وخلقه وتأهيله للنبوة، على الرغم من أنه أميّ لم يكن يقرأ أو يكتب وعاش بين قومه، وهم الشعب الجاهل لقصص الدين وبكل ما يتعلق بالإيمان والتشريع، والكتب المنزلة، ولم يكن محمد ﷺ ليعلم بهذه الأمور أيضاً إنما كان يتمتع بقوة الأخلاق وصدق الأمانة ومن كانت هذه أوصافه لا يمكن أن يخلق أو يختلق أي شيء ينسبه إلى الله، لاسيما وأن القرآن طيلة مدة نزوله البالغة ثلاثة وعشرين عاماً، لا يمكن إذا كان من نتاج بشري على ما هو عليه من غزارة وضخامة الإنتاج والمعلومات، إلاّ وأن يتضمن بعض التصريحات المتناقضة أو المتعارضة، وهذا بالطبع غير قائم مما يعني ويدل أن القرآن بما فيه من حقائق لا يمكن أن يكون من نتاج بشر وهو بالتالي لا يمكن نسبته إلى محمد ﷺ، كما أن قومه الذين عاش بينهم أدركوا أنه لا يمكن أن يأتي بهذا الكتاب، إذ هذا الكتاب منشأ قدسي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا في الماضي، ولا في الحاضر، ولا في المستقبل إذ يستحيل أن يصدر هذا القرآن عن قلب رجل أو رجال، ولو اجتمعت الإنس والجن فلن يتمكنوا من أن يأتوا بمثله.

قال تعالى:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

فهذا الوحي إذن لا يمكن أن يكون من تأليف محمد ﷺ أو من صنعه، لا سيما وأنه لم يفكر بالنبوه مطلقاً، كما أنه لم يدر في خلده أنه سيبعث رسولاً، كما أنه بعد أن تلقى الوحي حرفياً من رسول سماوي لم يكن ليضمن استمراره، هذا الوحي إذاً لم يكن من صنعه، لكنه أثر في شخصيته فشخصية محمد ﷺ استطاعت بأخلاقها وسلوكها أن تستحوذ على حب وإعجاب كل من عاشره، ولكن بعد أن كلف بالرسالة تألب عليه كل من كانوا يحبونه ويحترمونه، خاصة عندما اقترب، من الحلقة الرابعة من عمره، وها هو يجد أن ما يراه في منامه يتحقق بوضوح كفلق الصبح، وأخذ بعد هذا يميل إلى الخلوة والوحدة، وقد اختار مكاناً لخلوته، غار حراء أو جبل النور في شمال مكة، حيث كان بعيداً عن المجتمع الوثني، المجتمع الفاسد في مكة، وكانت هذه الخلوة محببة إلى نفسه، إذ كان يتحنث الليالي وفي سن الأربعين يجد النبي محمد ﷺ نفسه فجأة أمام حدث تاريخي جليل يحدد له مركزاً جديداً، يعتبر محوراً لمجرى التاريخ، هذا المركز يتحدد بمجرد أن سمع فجأة في يوم 17 من شهر رمضان، كما يقول ابن سعد وهو في غار حراء يطل على الكعبة من على الأفق المترامي من حولها، سمع أول اتصال يصدر عن ما وراء الكون بصورة حوار، يتم بينه وبين جبريل قائلاً له اقرأ... فتعتري محمداً ﷺ الدهشة، فيقول ما أنا بقارئ فيكرر جبريل قوله ويتكرر الطلب كما ذكرنا سابقاً عند بحث زمن نزول الوحي ومكانه.

وهكذا نجد أن أول نبع الوحي نزل معلناً عن علم سوف يتلقاه محمد ﷺ

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 88.

مستقبلاً بأمر الله سبحانه وتعالى، إذ كانت الإشارة إلى ذلك بقوله تعالى:

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

ثم غاب الملك وقد خرج محمد ﷺ من الغار وهو يردد ما سمعه من هول ما حصل له، ولم يفسر هذه الظاهرة القدسية حتى عاوده الصوت مرة ثانية يناديه، فرفع رأسه إلى السماء وإذ بضوء يبهره محيطاً بصورة غير مألوفة، وإذا بالملك ذاته يغطي الأفق قائلاً يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل «وقد أصاب محمداً ﷺ الاضطراب والفزع من هذه الظاهرة القدسية التي رآها ببصره وحس بها وسمعها وراح تثيره الهواجس النفسية، خيفة من أن يكون قد مسه شيء من السحر، وهو يمقت السحرة والكهنة وهو إذا لم يستطع أن يحول نظره عن السماء، فكان يحدق في كل مكان منها فيرى الملك أمامه وقد استمر لمدة ثم غاب، وقد بقي هذا الاضطراب مستحوذاً عليه، فهل ما شاهده وسمعه حقاً؟! أم ما هو إلاّ سراب باطني انبعث من نفسه، بتأثير انفعال ما يجسد بهذه الصورة، وهل خدعته جوارحه، كل هذه الأسئلة كانت تثور في نفس محمد ﷺ وهو عائد إلى زوجته خديجة ليسرها بما رأى وسمع علّها تخفف عليه مخاوفه، ووصل وحدثها، ولا تزال رؤياه لجبل النور بشعاع ثابت غير منظور ماثلة أمامه، فتحسرت زوجته وألقت خمارها ثم قالت هل تراه؟ قال لا... قالت يا بن عم.. أثبت وأبشر فوالله إنه ملك، ما هو بشيطان[2].

وكان هذا أول درس قدسي تلقاه محمد ﷺ معلناً لتلقي العلوم التي لم يكن ليعرفها، هذا وقد امتدت الحالة النفسية لمحمد ﷺ رسول الله وراح يتلمس نزول الوحي طالباً الدرس الثاني في ذات المكان، ويجوب الجبل ويمتد نظره إلى كل اتجاه عساه يرى ما رآه في الدرس الأول ومضت الأيام والأسابيع بل

(1) سورة العلق، الآية: 3 ـ 5.

(2) ابن الأثير ج 2 ص32.

العام ثم العام الثاني وأقبل العام الثالث ولا يزال الرسول ﷺ في انتظار مجيء الملك، وكاد أن يصل إلى حافة اليأس وكلمات جبريل لا تزال تراود مسمعه «يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل».

ولعل الحكمة في انقطاع الوحي وتلبثه المدة المختلف فيها، إنما ينطوي على أن هذا الانقطاع ما هو إلاّ من باب المعجزة الإلهية للرد على أولئك الذين يزعمون أن الوحي النبوي، ما هو إلاّ إشراق نفسي ينبعث من طول تأمل أو تفكير، وإنه أمر ذاتي داخلي بينما هو على العكس، ومع ذلك فإن هذه الكلمات التي كانت خديجة تخفف بها على رسول الله ﷺ من ضعف احتماله لانقطاع الوحي عنه، ولعله خاف من أن يكون غير جدير به، إلى أن نزلت الآيات لترفع الخوف والاضطراب عنه.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾[1].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[3].

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[4].

ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ في بدء نزول الوحي عليه كان يناقش نفسه ويتساءل عن ماهية هذا الوحي ومدى استمراره وأنزل الله الآية.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ

---

(1) سورة القلم، الآية: 2.

(2) سورة الضحى، الآية: 3.

(3) سورة المزمل، الآية: 1 ـ 2.

(4) سورة المزمل، الآية: 5.

جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾[1].

وهكذا اطمأنت نفسية رسول الله ﷺ وارتاحت نوعاً ما، ولكن الوحي لم يمنحه العلم المنتظر بعد، وكان قد شارف على الرابعة والأربعين من العمر، ولا يزال هذا القول الذي أشار إليه الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[2] وأضحى بعد هذا الدرس الأول يتلمس نزول الوحي في نفس الفترة التي انعزل فيها في جبل حراء إلى أن تمت المفاجأة بظهور الملك، وقد أذهل لرؤيته، فارتعد وأسرع عائداً إلى خديجة وهو يرتعد طالباً الرعاية السابقة، بيد أن الملك تابعة إلى المنزل حاملاً رسالة من الله بمهمة تدعوه فيها إلى الدعوة والتبليغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾[3].

ومنذ ذلك الحين حمى الوحي وتتابع، وهكذا بنزول هذه الآية التي تلقاها محمد رسول ﷺ هدأت نفسيته وزال اضطرابه وعلم أن مهمته لم تكن لتقتصر على النبوة فقط، بل أضيف إليها دور الرسالة التي طلب إليه تبليغها للناس، ومنذ ذلك الحين أضحى الوحي بعد التكليف بالرسالة ينزل على رسول الله ﷺ في فترات متقاربة أي إنه متصل غير منقطع كما حصل في الفترتين الأوليتين.

وهكذا تتحول شخصية الرسول بعد الوحي من شخصية نبي إلى شخصية رسول إذ إن عام 612 ميلادية كان عام انطلاق رسالة الإسلام التي نزلت على محمد ﷺ وفي تاريخ هجرته عندما دعته الضرورة الملحة وهو يبلغ رسالته إلى الرحيل إلى المدينة للابتعاد عن المؤامرة التي كانت تعد للقضاء عليه، وبهذا يمكن أن تقسم فترة الدعوة رسالة الإسلام إلى قسمين متساويين تقريباً، منها عشر سنوات في مكة مسقط رأس الرسول، وعشر سنوات في المدينة محل

---

(1) سورة يونس، الآية: 94.
(2) سورة المزمل، الآية: 5.
(3) سورة المدثر، الآية: 1 ـ 2.

إقامته الجديد، حيث توفي في 12 أو 13 من ربيع الأول عام 11 هجرية (7، أو 8 يونيو 623 ميلادية) بعد أن بلغ من العمر ثلاثة وستين عاماً قمرياً بالكامل أي أكثر قليلاً من واحد وستين عاماً شمسياً[1].

هذا الوحي الذي نزل على محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً والمخطط بأمر من الله وتوجيهه أثر في شخصية الرسول ﷺ تأثيراً بالغاً ابتداءً من (اقرأ) بسورة العلق إلى تكليفه وتحميله الرسالة والدعوة إليها (قم فأنذر). سورة المدثر، ومن الدعوة السرية، إلى طلب الدعوة العلنية، ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[2]. ثم من دعوة الرسول لأقاربه ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[3] إلى دعوة أهالي مكة بأسرهم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ﴾[4]. ثم إنذار القرى المجاورة ومن حولها.

قال تعالى:

﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ﴾[5].

ثم إنذار البشرية جمعاء رحمة بهم

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[6].

وهكذا نجد أن الوحي كان يهدف إلى إرساء قواعد أساسية في الإسلام من

---

(1) محمد عبد الله دراز ـ مدخل إلى القرآن الكريم ص31 ـ دار القرآن الكريم الكويت عام 1971 ترجمة محمد عبد العظيم علي.

(2) سورة الحجر، الآية: 94.

(3) سورة الشعراء، الآية: 214.

(4) سورة القصص، الآية: 59.

(5) سورة الأنعام، الآية: 92.

(6) سورة الأنبياء، الآية: 107.

عقيدة وعبادة ومعاملات وأخلاق، والتي تتضمن فحوى الدين وهي قواعد عامة تتناول الإيمان بالله، ولا إيمان بغير الله، الذي لا شريك له، كما تتضمن الإيمان بالحياة الآخرة وهي التي تتناول بحث خلود الروح، وبعث الجسد،

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

وقوله تعالى في هذا الشأن أيضاً:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[2].

فالرسالة الإسلامية بدأت بتلاوة آيات تهدف إلى القضاء على الكفر، وغزو الفكر والوجدان، وقلب المجتمع بتفكيره الوثني إلى تفكير إسلامي إنساني يحقق الحياة الروحية، بالاستجابة إلى ما يدعو إليه محمد ﷺ.

قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[3].

هذه الهداية في الدعوة إلى الحياة، والتي تفتح القلوب بإذن الله إذ القلوب بيد الله.

---

(1) سورة المؤمنون، الآية: 12 ـ 16.

(2) سورة الحج، الآية: 6 ـ 7.

(3) سورة الأنفال، الآية: 24.

قال تعالى:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾[1].

على أن هذه الهداية بأمر من الله إذ الرسول ﷺ لا يملك سوى الدعوة والبلاغ، ولا يملك الهداية لأحد، فليس هو الذي يهدي أو يسمع أو يرى العميان، إذ لا يتم شيء إلاّ بإرادة الله وأمره قال تعالى مشيراً إلى ذلك مخاطباً رسوله:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾[3].

فالرسول والحالة هذه كان يطلب الهداية للناس، وهي مهمته، حيث يبلغ الناس الدعوة دون أجر أو أي كسب، إذ لم تكن نفسيته أصلاً للتأثر بالمال أو الجاه، أو أي لذة مالية، فقد عزف عن زخارف الدنيا إذ انعكس أثر الوحي وتكليفه بالرسالة على شخصيته، حيث حمل أعظم رسالة للبشرية جمعاء على الإطلاق، وكان يشعر بعظم المهمة وقدسية الرسالة الملقاة على عاتقه، لا تأخذه في سبيل تحقيقها والدعوة إليها لومة لائم، ولا ينثني عن عزمه، بل ازدادت نفسيته إيماناً وقولاً بنجاح هذه الرسالة بعد أن أمره الله أن يكون بشيراً ونذيراً.

ومما يؤيد ذلك ما روي «إن عتبة بن ربيعة، وكان سيداً في قومه، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه

---

(1) سورة الأنفال، الآية: 24.

(2) سورة الروم، الآية: 52 ـ 53.

(3) سورة الرعد، الآية: 31.

أيها شاء، وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه.

فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة، والكمال في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني وأعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل مني بعضاً فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد اسمع.

فقال: يا بن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً علينا شرفناك حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه، لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي منه.

حتى إذا فرغ عتبه، ورسوله الله يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: افعل.

فقال رسول الله ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ * بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ * وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[1].

---

(1) سورة فصلت، الآية: 1 ـ 4.

ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه.

فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض، نَحْلِفُ بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!!.

فلما جلس إليهم قالوا:

ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال:

ورائي إني سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر ولا بكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

هذه الرواية تعطينا صورة واضحة على أن مدرسة الفكر الديني الإسلامي بما فيها من تشريع وأخلاق وأدب ومعاملات هي من وحي الله وليست من فكر محمد ﷺ ويؤيد ذلك الآيات العديدة الواردة في القرآن.

قال تعالى على لسان رسوله:

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[2].

---

(1) عبد الحليم محمود الإسلام والعقل ص: 192 ـ 194.

(2) سورة يونس، الآية: 15.

وقال تعالى:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[2].

فالرسول ﷺ لم يكن مستقلاً في تفسير الفكر الديني الموحي إليه وإنما كان يتقيد بأمر الله ويطبق القرآن، وقد روي عن جابر بن نفير رضي الله عنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت القرآن.

وبهذا نجد أن شخصية رسول الله تأثرت بالقرآن إلى أبعد الحدود، فكان كل ما يأتي به بأمر من القرآن وكل ما يدعه بأمر من القرآن، هذا السلوك في التقيد بأحكام القرآن، إنما كان من الله،

قال تعالى:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[3].

فشخصية الرسول ﷺ قد أثرت وازدهرت بعلم الله وبما أنزله عليه من الوحي . . . وقال ﷺ:

«من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم»

لهذا كان الرسول ﷺ يدعو إلى علم وينشره ويعمل به، إذ عمل رسول الله بما علمه الله ونشر رسالة الله، وكان قومه يعلمون أن ما به من جنة، وأنه أرجح

---

(1) سورة الجاثية، الآية: 18.

(2) سورة الرعد، الآية: 37.

(3) سورة هود، الآية: 112.

قريش عقلاً، وأصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، وقد مكث من قبل أربعين عاماً، ولم يحدث قومه بنبوة، ولا برسالة:

﴿قُل لَّوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2].

هذه الرسالة التي يدعو إليها، الرسول ﷺ لم تكن إلاّ من الله وباسم الله ولله، فلم تكن إذاً لشخصيته أي فكرة أو تأثير في الوحي، وما كان ليستطيع مطلقاً أن يلغي أو يعدل أي حرف مما يوحي به إليه، ولا صحة لما يقول البعض بجواز نسخ الكتاب بالسنة، واستشهدوا لذلك بقوله تعالى:

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[3].

قال البعض إن حكم هذه الآية منسوخ بالحديث لقوله ﷺ:

«خذوا عني خذوا عني، فقد جعل الله لهن سبيلاً الثيب ترجم والبكر تجلد».

على أن هذا التفسير غير صحيح، فالحديث ليس المقصود به نسخ الآية بل شرحها، وإننا لا نجد ولا حالة واحدة نسخ فيها النبي آية قرآنية، بتجربة فردية، حتى ولو كانت تجربته هو نفسه[4]، إذ لا يصح عقلاً لأي حديث أن

(1) سورة يونس، الآية: 16.
(2) سورة سبأ، الآية: 46.
(3) سورة النساء، الآية: 15.
(4) مالك بن نبي المرجع السابق ص: 46 الهامش.

ينسخ آية من القرآن، إذ ليس للفكر المحمدي على الوحي القرآني المنزل من الله من سبيل، أمام صراحة النص القرآني المخاطب به رسول الله.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1].

وهكذا نجد أنه ليس للفكر الشخصي الذي ينبعث عن محمد ﷺ أي أثر على الوحي القرآني المنزل، لا سيما وأن الرسول ﷺ ذاته في قضية تأبير النخل، عدل عن رأيه فيما ظنه، أن التأبير لا ينفع، وأن رأيه كان قد ساقه على سبيل الاحتمال دون الإلزام، فمن باب أولى إنه لا يملك التصدي إلى تعديل أي آية من القرآن، أو إضافة أي حرف عليها.

هذا وقد ورد عن موسى بن طلحة عن أبيه قضية التأبير قال: «مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا يلحقونه يجعلون الذكر مع الأنثى فتلقح، فقال رسول الله ﷺ ما أظن يغني شيئاً: قال فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فإني ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لم أكذب على الله عز وجل»[2] وهكذا نجد أن رأي الرسول ﷺ هنا كان على سبيل الاحتمال دون الإلزام، مما يؤكد أن رأي الرسول ﷺ في ظاهرة الوحي لم يكن إلاّ تفسيري وليس له أن يبدل أو يغير فيه شيئاً.

المعجزات:

تدخل المعجزات في شمول ما يوجب الإيمان بها، والمعجزة: هي من الأمور الخارقة للعادة والتي تظهر على يد أحد الأنبياء، فالمعجزة إذاً تخالف القواعد المألوفة التي تجري على سنن الطبيعة وقوانينها، وإن كانت لا تخالف

(1) سورة يونس، الآية: 15.

(2) صحيح مسلم ج: 4 باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي.

العقل والإمكان، وقد تظهر هذه الخوارق على أيدي المقربين الصالحين، فتسمى بالكرامة، فالمعجزة إذن تظهر صدق النبي في دعواه وقد أرسل الله الرسول ليبلغ الناس بالدين، ويعلمهم، وقد أيده بالآيات التي هي الوحي، والتي ثبت بها أنه مرسل من عند الله وإنه يتلقى عنه، هذه الآيات التي يؤيد الله بها رسله، لا شك أنها فوق مقدور البشر، وخارج نطاق طاقاتهم وعلومهم، ومعارفهم، وهي إذاً خارقة للعادات المألوفة والقوانين المعروفة، لهذا سميت بالعجزات لأن العقل عجز عن تفسيرها، كما تعجز القدرة الإنسانية عن الإتيان بمثلها[1] لهذا كانت من قبيل الحجة التي تقام على الناس.

هذا وإن المؤمنين لا يتطرق إليهم الشك في تصديق المعجزات، طالما أنها بأمر الله سبحانه وتعالى، فالنار التي من طبيعتها الحرق بأمر الله تضحي غير محرقة، إذ إن الذي جعلها محرقة يمكنه أن يسلب عنها هذه الخاصة، كما حصل لإبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[2].

مثال آخر على المعجزة، أن النسل والإنجاب عادة لا يتم بلقاح طبيعي أو صناعي تبعاً للقواعد المألوفة، ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق من السيدة مريم العذراء دون مس بشر لها قال تعالى:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[3].

---

(1) السيد السابق ـ العقائد الإسلامية ص: 208.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 68 ـ 69.

(3) سورة مريم، الآية: 20 ـ 21.

وقال تعالى:

﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

فالله القادر على أن يعطي المرأة الولود القدرة على الإخصاب والإنجاب قادر أن يعطي الإخصاب للعقيم.

قال تعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ * فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[2].

وقال تعالى: عن معجزة موسى عليه السلام:

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[3].

وهكذا نجد أن هذا الكون العظيم الذي خلقه الله ودبره ووضع قوانينه قاصر على أن يتقيد بهذه السنن الظاهرية، بل قد يخرج عنها بمشيئته وفقاً لعلمه وقدرته أما علم البشر فقاصر وقليل،

قال تعالى:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[4].

فالمعجزات إذن لا يملك أحد القيام بها إلاّ من أذن له الله سبحانه وأمره

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 91.

(2) سورة آل عمران، الآية: 38 ـ 40.

(3) سورة الشعراء، الآية: 63.

(4) سورة الإسراء، الآية: 85.

بها، فهي ليست من مقدور البشر، إنما هي آية من آيات الله وحده، ومعجزة لنبيه تعزز بها النبوة، ويتحدى النبي فيها معارضيه، وعلى ذلك تقول إن الحكمة من المعجزة «تحقق» ما يلي:

1 ـ إثبات صدق النبي بنبوته إذ بظهور المعجزة على يد النبي يتحقق البرهان الواضح الدال على صدق ما يدعيه الرسول في رسالته.

2 ـ إنها تكريم للرسول فهي تشد أزره وتساعده، كما فعل الله مع الرسول محمد ﷺ في معجزة الإسراء والمعراج، حيث عرج به إلى الملكوت الأعلى ليريه من آياته الكبرى،

قال تعالى:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1].

3 ـ إنها تنبيه توقظ الغافل أو المتعنت بعدم الإيمان فتهزه وتوقظه وتضعه أمام معطيات القدرة الإلهية، مما يجعله يرجع عن هذا التعنت وينفتح صدره وقلبه للإيمان.

وهكذا نجد أن المعجزات تبرهن على صدق الرسل والأنبياء في دعوتهم، وتؤكد أنهم مرتبطون بأمر الله وتأييده، مما يتعين الإيمان والتصديق بالمعجزة الثابتة بالدليل القطعي كالقرآن[2] والقرآن كان هو المعجزة العظمى الخالدة نزلت على محمد ﷺ، والذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

---

(1) سورة الإسراء، الآية: 1.

(2) مصطفى سعيد الخن ـ مبادئ العقيدة الإسلامية ص: 228.

(3) سورة الإسراء، الآية: 88.

واستمر التحدي حتى أن ياتوا بسورة واحدة من مثله.

قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(1).

هذا ويحدثنا القرآن الكريم عن معجزات عدة لا مجال لذكرها هنا، وإن ثبوتها قائم بالقرآن أو بالخبر المتواتر، أو بالحديث المتواتر المنقول عن رسول الله ﷺ فالمعجزة إذاً تثبت بالمشاهدة أو بالخبر الصادق، مما يتعين الإيمان بها.

كما أن للمعجزة شروطاً يجب توفرها حتى يضفي على الحدث صفة المعجزة، فما هي إذاً هذه الشروط.

شروط المعجزة:

1 ـ أن يكون الحدث مما يتحقق به إنه خارق للعادة أو للسنن المألوفة في قوانين الكون وأنظمته، وأن هذا الحدث، لا يمكن أن يقوم به أي إنسان بصفته البشرية، بل لا يقوم به إلاّ من كان مؤيداً من الله نبياً كان أو رسولاً وأن تكون المعجزة بأمر الله وإذنه.

2 ـ أن تتم المعجزة على يد الرسول الذي يقوم بمهمة الدعوة.

3 ـ أن يكون القصد من المعجزة تحدي الأشخاص الذين يدعوهم الرسول إلى الإيمان برسالته وإظهار عجزهم من أن يأتوا بمثل هذه المعجزة.

4 ـ أن تكون المعجزة متفقة مع الدعوة التي يدعو إليها الرسول.

5 ـ أن تحمل المعجزة معنى الإعجاز لجميع البشر في أن يأتوا بمثلها.

هذه المعجزات تختص بالأنبياء والرسل، ولا شك أن أعظم معجزة هي القرآن الكريم فقد تحدى البشر في إعجازه سواء من حيث إعجاز اللفظ أو

---

(1) سورة البقرة، الآية: 23.

الأسلوب أو الصياغة، أو من حيث الإعجاز التشريعي، أو الإعجاز بما ورد فيه من أخبار عن المغيبات، أو من حيث الإعجاز العلمي، فهو وحي أنزله على أكمل صورة من صور الوحي، وفي جميع الأحوال فإن خصوصية الإعجاز بالنسبة للرسل، يجب الإيمان بها وهي رسالة محمد ﷺ التي اختصت بأمور اعتقادية، وبأمور تشريعية، وأمور أخلاقية فكانت رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الأخيرة باعتباره خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

أولياء الله في القرآن:

ذكر الله سبحانه وتعالى الأولياء في القرآن وخصهم بالرعاية والتقدير، وهم لم يخرجوا عن طبيعة البشر، فهم من المؤمنين المتقين، ولكن لا يعني هذا أن لهم دالة على الله، لهذا لا يجوز الاتجاه إليهم والاستجارة بهم أو طلب الغفران منهم، لأن الإسلام، لا يعرف في عقيدته مدلولاً للقديسين على هو مألوف عند بعض الطوائف.

فالقرآن عندما أشار إلى الأولياء وعرفهم، لم يخصهم بامتياز يضفي عليهم القداسة والقدرة على مغفرة الذنوب فالمغفرة لا تطلب إلاّ من الله،

قال تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾[2].

فأولياء الله هم المؤمنون المتقون الذين يتبعون الرسل فيما يدعون إليه

(1) سورة الأحزاب، الآية: 40.
(2) سورة الإسراء، الآية: 56.

ويبلغونه فيتقربون إلى الله بما شرعه، ويبتعدون عما حرّمه، قال تعالى واصفاً هؤلاء:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(1).

ومن كان هذا شأنهم، فإن الله سبحانه وتعالى يكرمهم بما يظهره على أيديهم من أمور، ومع ذلك ليس من شرطها أن تكون من خوارق العادات أو خارجة عن القواعد المألوفة، ومما يدخل في شمول الكرامة والاستقامة والتقوى، والصلاح، والتوفيق، إلى طاعة الله، والاستنزادة من العلم، والقيام بالأعمال الصالحة، لأن العمل الصالح تطبيق للإيمان، كل هذا بغية اتباع الصراط المستقيم، وهداية الناس إليه.

هذا وقد تظهر بعض الخوارق على أيدي المتقين الصالحين المتفرغين للعادة، ومع ذلك فإنهم يتسترون بها ولا يتظاهرون بها، ولا شك أن الكرامه من هذه الناحية تختلف عن المعجزة الواجب إظهارها ليتم بها التبليغ، وقد أشار إلى مثل هذه الكرامات القرآن بقوله تعالى:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(2).

وإذا كانت الكرامات تلازم المخلصين والمتقين على أن ذلك لا يمكن أن يكون مبرراً للتوسط بهم إلى الله واعتبارهم ملجأ وملاذاً، كما لا يسوغ التمسح بقبورهم وأضرحتهم ووضع التمائم عليها وإيقاد الشموع لها، ونذر النذور أو تقديم القرابين، ولئن شاع هذا عند عامة الناس، فهذا ليس من الدين في شيء، وما هو إلاّ من باب البدع السيئة التي ينكرها الإسلام ويأباها وترفضها العقيدة الإسلامية عامة.

(1) سورة يونس، الآية: 62 ـ 63.

(2) سورة آل عمران، الآية: 37.

الفصل الرابع

محمد رسول اللّه أفضل الرسل وخاتم الأنبياء

لقد فضل الله سبحانه وتعالى الرسل بعضهم على بعض في صفاتهم، فمنهم من أولو العزم بدليل قوله تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

وهم: محمد، نوح، وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فهؤلاء جميعهم أولو العزم على القول المشهور، وقد نص عليهم سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[2].

وقال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟﴾[3].

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: 35.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 7.

(3) سورة الشورى، الآية: 13.

ومع ذلك فإن هؤلاء الرسل قد رفع الله بعضهم درجات والرسول محمد ﷺ أفضل الرسل الذي رفعه الله درجات، وقد أخذ الله الميثاق على الرسل بالإيمان به ونصرته.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[1].

فالمقصود هنا برفعه درجات هو الرسول محمد ﷺ إذ حضَّ الله على نصرته بما جاء به، وأن الرسالة التي يدعو إليها مصدقة لرسالة الأنبياء والمرسلين قال تعالى:

مشيراً إلى ذلك:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2].

ولا شك أن التفضيل هنا ليس المقصود به الغلو في التعظيم، وإنقاص قدر الآخرين من الأنبياء والرسل، لأن الأنبياء المرسلين جميعهم كانت غاياتهم سامية مقدسة، ترمي إلى إنقاذ الإنسانية من الضلال، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور تبعاً للرسالة التي بعث الله كل رسول بها، لهذا فإن تعدد الرسالات كان القصد من كل واحدة منها، إكمال سابقتها تبعاً لأسلوب نفسي حكيم يرمي إلى معالجة النفوس وإصلاحها تدريجياً، بغية إتمام صرح بناء الإسلام، وهكذا تواردت الرسالات إلى أن اختتمت برسالة خاتم الأنبياء

(1) سورة البقرة، الآية: 253.

(2) سورة آل عمران، الآية: 81.

والمرسلين محمد ﷺ التي بها تمت نعمة الله على عباده بالهداية، إذ لا نبوة ولا رسالة بعد رسالة محمد ﷺ وهي الرسالة التي رضيها الله لنا ديناً.

قال تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(1).

هذه الرسالة الخاتمة لجميع الرسالات، ختمت بها النبوة أيضاً برسول الله ﷺ.

قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾(2).

وقد جاء الرسول محمد ﷺ متمماً رسالات من قبله، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وقد أشار القرآن إلى ذلك على لسان إبراهيم وإسماعيل إذ يدعوان الله وهما يرفعان القواعد من البيت.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(3).

هذا وقد بشر عيسى ابن مريم عليه السلام برسالة محمد ﷺ إذ ورد في القرآن قوله تعالى:

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾(4).

---

(1) سورة المائدة، الآية: 3.
(2) سورة الأحزاب، الآية: 40.
(3) سورة البقرة، الآية: 129.
(4) سورة الصف، الآية: 6.

وقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1].

نخلص من ذلك كله، أن الرسول محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين وقد روى عنه أنه قال:

«مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بني داراً فأكملها وأحسنها إلاّ موضع لبنة فكان من دخلها فنظر إليها قال ما أحسنها إلاّ موضع هذه اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»[2].

مميزات الرسالة وصفاتها:

هذه الرسالة التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين والتي تلقاها من الملأ الأعلى وهي فوق طاقات البشر، وخارج نطاق علومهم ومعارفهم، ومعجزة للبشر تتميز بصفات خاصة هي:

1 ـ العمومية للناس:

إن رسالة محمد ﷺ للناس عامة، على اختلاف أقاليمهم وأجناسهم وعروقهم فهي رسالة تحقق المساواة بين البشر، لا فضل لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى فهي تهدف إلى نشر الدين الإسلامي على عموم الناس فهي على خلاف الرسالات السابقة التي توجد لعصر معين وأمة معينة كرسالة إبراهيم مثلاً أو رسالة عيسى عليهما السلام إذ كل رسالة تدل على رسول لأمة معينة في بلد معين، أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة دائمة مستمرة لكل العصور، وفي كل زمان ومكان، ولا يستطيع الزمن أن ينال منها أو يمحوها ومن هنا اتصفت بصفة العمومية.

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 157.

(2) أخرجه البخاري في المناقب، ومسلم في كتاب الفضائل.

2 ـ الشمولية:

إن رسالة الرسول محمد ﷺ تتصف بالشمولية، فهي رسالة تحقق للإنسان سعادته في الدنيا والآخرة، فهي تعالج شؤون الدنيا، فتتناول الفرد والأسرة والجماعة، والأمة والدولة، بمعنى أنها تنظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وتضع الحلول البناءة لها، إضافة إلى أنها تنظم أسس التعامل بين الأفراد، بما يحقق الحرية والمساواة وما يكفل مصلحة الفرد، ومصلحة الجماعة، في ضوء المصلحة العامة.

هذه الرسالة تعالج شؤون الدين والدنيا، في ضوء المعايير والضوابط التي تؤهل الإنسان لحسن المعاملة ومن هنا جاءت أهمية هذه العقيدة التي هي ثابتة لا تتغير ولا تتبدل على الرغم من تعدد هذه الرسالات، لأنها جميعها تدعو إلى وحدة الألوهية، ووحدة الربوبية، فهي دين شامل للأخلاق وللمعاملات والعقائد والعبادات.

3 ـ الكمال:

إن رسالة محمد ﷺ رسالة نهائية كاملة، وبالتالي فهي خاتمة للرسالات السابقة والرسول محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين به كملت الرسالات والرسل جميعاً فلن يأت رسول بعده، ولن تنزل أي شريعة سماوية بعد رسالته، وهذا الاعتقاد ركن من أركان الإيمان، وإنكار ذلك، إنما هو إنكار لما جاء به القرآن.

قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

(1) سورة الأحزاب، الآية: 40.

4 ـ النسخ :

إن رسالة محمد ﷺ بما فيها من عقائد وعبادات وشريعة إنما هي رسالة متممة للرسالات السابقة في العقيدة لأنها تدعو إلى الإيمان بالله وتوحيده في الألوهية والربوبية، وهي الدعوة التي نادى بها الأنبياء من قبله، إبراهيم وموسى، وعيسى عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من الرسل، على أنها في نطاق الشريعة جاءت ناسخة لكل الشرائع التي سبقتها، والمقصود بالشريعة أحكام المعاملات المختلفة، والأحكام العملية للعبادات وعلى هذا فالشرائع السماوية السابقة، وإن كانت صالحة لأمة معينة، وزمان معين على أن تبدل الأحوال بتبدل الأزمان، ودعا إلى نزول الشريعة الإسلامية على العالم، الناسخة لجميع الشرائع التي سبقتها، بحيث أضحت وحدها هي الواجبة الاتباع، ومن يتبع غيرها فلن يقبل منه، بدليل قوله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

ووحدانيته هو طريق المؤمنين، وزادهم في الدنيا والآخرة. وهو الهادي للتطبيق العملي لمفهوم العقيدة في ضوء الرسالة التي حددت أهدافها ومبادئها في القرآن، التي قضت على ملة الكفر.

1 ـ حققت الرسالة المجتمع الأسري المثالي للأسرة الفاضلة، إذ حددت أسس الزواج وشروطه فقضت بذلك على فوضى النسب وحددت المحرمات، بغاية الدقة في نظام منطقي، حدد به القرابة العصبية، وبين أفضلية رباط الذكر على رباط الأنثى، كما وأرسى قواعد للزواج والطلاق وللشؤون المدنية، ولتنظيم السلوك الحياتي الأخلاقي، بما يؤدي إلى حسن التعامل، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 85.

قال تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

2 ـ حققت الرسالة المحمدية الدين الحق، فرفعت بذلك الإنسان إلى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه من الكمال والرقي والسعادة، وذلك باتباع ما أمر به الدين واجتناب ما نهى عنه.

3 ـ حققت الرسالة المحمدية تغييراً جذرياً في عقول الناس ونفوسهم وقلوبهم إذ زودتها بمبادئ وأسس أخلاقية دينية علمية وعملية، وبهذا تغيرت أوضاع المجتمع ما أدى ذلك إلى تغيير جذري في نظام الحياة السائدة في ذلك الحين، التي ألفها أهل الجاهلية.

4 ـ الرسالة المحمدية حققت وبنت صرح الدولة الإسلامية الكبرى، فأوجدت بذلك الأمة العربية الإسلامية تحت راية القرآن الكريم وتعاليمه كما أقامت مدارس مفتوحة في كل زمان ومكان، مناهجها تكمن في الرسالة رائدها القرآن الكريم وبهذا عمت مفاهيم الدين الإسلامي وتعاليمه العالم وشيدت حضارة إسلامية تنهل منها كل الأمم على اختلاف عروقهم وأجناسهم.

كل هذه الأعمال حققها الرسول محمد ﷺ بدعوته المستمرة على مدى العصور والمؤيدة من الله سبحانه وتعالى.

---

(1) سورة النساء، الآية: 23.

تلك هي من أهم الأعمال والقيم التي حققها رسول الله ﷺ، ومع ذلك فإن هذه الرسالة ليست صادرة عن فكر محمد ﷺ، إنما هي رسالة ربه كلف بها من عنده من طريق الوحي، ومهمته فيها الإرشاد والتعليم بوصفه نبياً ورسولاً. يدعو إلى طاعة الله واجتناب نواهيه، وتهذيب النفوس، وإقامة العدالة، والحرية والإخاء والمساواة من خلال هدي الله لإقامة المجتمع العادل،

قال تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[1].

وبهذا وضّح الرسول ﷺ طريق الخير وأمر باتباع رضوان الله.

قال تعالى:

﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾[2].

هذا وإن الرسالة التي دعا إليها محمد ﷺ ليس له أجر فيها، ولا يملك فيها لنفسه نفعاً ولا ضراً، وما هو إلاّ نذير وبشير.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

وقال تعالى مخاطباً رسوله لتذكير الناس إلى اتباع ما أمر الله به.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[4].

وقال تعالى نافياً صفة الوكالة عن الرسول، فهو ليس بوكيل على الناس.

---

(1) سورة طه، الآية: 123.

(2) سورة المائدة، الآية: 16.

(3) سورة الأعراف، الآية: 188.

(4) سورة الغاشية، الآية: 21 ـ 22.

﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[1].
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾[2].

في دلائل صدق الرسالة والرسول ﷺ:

لقد قامت أدلة عديدة على صدق رسالة الرسول ﷺ وصدقه، سواء ما يتعلق بسلوكه الشخصي، أو بشخصيته، أو بشهادة الله، هذه الأدلة هي:

1 ـ زهد محمد ﷺ في الحياة الدنيا:

لقد عرف عن رسول الله ﷺ أنه كان يبتعد عن مظاهر الرفاهية في عيشه أو في كسوته، من حرير أو ديباج أو ذهب، وكان يعيش عيشة بسيطة، فقد يمر عليه الشهران ولا يوقد في منزله ناراً، هذا العزوف عن الدنيا يؤيده سلوكه في حياته وإيمانه بأن الحياة الدنيا لهو ولعب، ومتاع الغرور، كيف لا يكون كذلك وهوالداعي إلى رسالة ربه؟.

قال تعالى:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام، الآية: 66.
(2) سورة الإسراء، الآية: 54.
(3) سورة الحديد، الآية: 20.
(4) سورة هود، الآية: 15 ـ 16.

هذا وقد عرف عن رسول الله زهده في الحياة وعزوفه عن الرفاهية والمال، والرغبة بما عند الله خير وأبقى، ولم يكن هذا السلوك خاص به فقد علمه إلى نسائه إذ عرف عن نساء النبي انهن عندما رغبن في الاستمتاع بالغنائم وطلبن نصيباً منها نزلت الآية داعية إلى الحياة الآخرة.

قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا﴾[1].

وروى هارون بن رباب عن سلوك رسول الله في الزهد في المال فقال: «كانت تأتيه الدنيا فينفقها وهو جالس» أتى إليه صلوات الله وسلامه عليه سبعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها ويقول محمد ﷺ **«مالي وللدنيا»**.

ويقول ﷺ: **«عرضت علي الدنيا فأبيتها»**.

ويقول ﷺ: **«خيرت أن أكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً فاخترت أن أكون عبداً رسولاً»**[2].

ولا شك أن رسول الله ﷺ كان صادقاً في زهده وعزوفه عن الدنيا، وسيرته تعطينا الصورة الصادقة لهذا السلوك، وكيف لا يكون كذلك وهو الذي يدعو إلى الدار الآخرة والعزوف عن الدنيا، لا سيما وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 28 ـ 29.

(2) عبد الحليم محمود الإسلام والعقل ص: 198.

ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[1].

هذا السلوك الداعي إلى سبيل الله والسعي لإرضائه سبحانه وتعالى لهو دليل على أن الرسالة نزلت على محمد ﷺ، الزاهد في الدنيا، والذي مكث طيلة حياته يكافح في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونشرها في جميع أنحاء العالم.

فالزهد إذاً طبيعة من طبائع الرسول ﷺ ولأنه كان زاهداً في الحياة كان يكره أن يمتدحه أصحابه، أو يثنوا عليه، أو يقوموا له تعظيماً قال رسول الله ﷺ.

«لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم».

وقد روي عن أنس (رضي الله عنه) أن رسول الله كان أحب شخص إلى الأنصار والمهاجرين ولكنهم كانوا إذا رأوه لا يقومون له، لما يعرفون من كراهية له «أي القيام له»[2].

2 ـ محمد ﷺ كان أمياً:

من دلالة صدق الرسالة التي يدعو إليها محمد ﷺ إنه كان أمياً وهو على هذه الصفة فقد قام بعمل جليل عظيم، وهو الذي لم يدخل مدرسة أو معهداً أو كلية، ولم يقرأ ولم يكتب، ولم يكن قد تتلمذ على أحد أو استنار منه أو كان تابعاً لأحد العلماء أو العظماء فنجاحه بتبليغ الرسالة، وهو على هذه الصفة من الأمية، دليل على أن الرسالة مرسلة من عند الله ومؤيد بنصره وما كان يدري ما الكتاب وما الإيمان، ولكن الله جعل له نوراً يهتدي به، قال تعالى مخاطباً رسوله:

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 14.

(2) عبد الحليم محمود المرجع السابق ص: 199.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فالرسول ﷺ كان لا يعلم من أمر النبوة شيئاً، كما أنه لم يكن ليعلم أنه سيتصل بالذات الإلهية ولكن بعد أن نزلت عليه الرسالة، وقد فجرت المعجزات على يديه وهو الأمي، في حين أنه يعجز العلماء عن الإتيان بما فعله الرسول، وهذا دليل صادق على حتمية الرسالة وصدق الرسول ﷺ بالذات وقد أيده الله بذلك فقال تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].

كما قال تعالى تأييداً لرسوله أيضاً وتأكيداً على أنه أميّ:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[3].

فالدعوة التي بشر بها الرسول إذن كلها آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ولا يمكن أن يجحدها أو ينفيها إلاّ الجهلة أو الظالمون الذين من شأنهم أن ينكروا الحق ظلماً وبهتاناً.

فالرسول الأميّ قد حمل رسالة الله، وحاشاه أن يفتري على الله كذباً، أو

---

(1) سورة الشورى، الآية: 52.
(2) سورة يونس، الآية: 15 ـ 16.
(3) سورة العنكبوت، الآية: 48 ـ 49.

يفتري على القرآن، أو يأتي بسورة، وهذا العجز إذ هو محقق لدى العلماء فمن باب أولى أن لا يكون قائماً لدى الأميين.

قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(1).

3 ـ صدق محمد ﷺ وكمال أخلاقه:

لقب محمد ﷺ بالصادق الأمين، فما عرف عنه قط أنه كذب لا قبل البعثة ولا بعدها وبهذه الصفة عرفه قومه، فقد لبث في قومه أربعين عاماً، ولم يحدثهم بنبوة أو رسالة.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(2).

وهذا دليل على صدق رسول الله، إذ ما أقعده هذه المدة الطويلة لو كانت الرسالة من عنده، مما يؤكد نزول الرسالة عليه وأمره بتبليغها من قبل الله.

هذا وقد حدد القرآن صفات الرسول بالأخلاق الحسنة ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(3).

فعرف الرسول ﷺ بالأمانة والاستقامة، والعدل، ومن كان هذا شأنه يستحيل أن يكون كاذباً، فالرسول ﷺ إذاً صادق في دعواه التي يدعو إليها بالحق والإيمان، والعدل والإحسان، وبهداية الله وباتباع المنطق، والحجة البالغة وما

(1) سورة هود، الآية: 13 ـ 14.
(2) سورة يونس، الآية: 16.
(3) سورة القلم، الآية: 4.

خبرنا به أكثم بن صيفي، عندما بعث ابنه يستقصي خبر النبي محمد ﷺ لهو خير دليل على صدق رسول الله ﷺ بدعوته إذ يقول الألوسي في هذا الصدد:

إنه لما ظهر النبي ﷺ بمكة ودعا إلى الإسلام بعث أكثم بن صيفي ابنه «حبيشاً» فأتاه بخبره فجمع بني تميم وقال لهم:

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة، وأتاني بخبره. وكتابه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد عرف ذوو الرأي منكم، أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه، وأن الذي يدعو إليه محمد، لو لم يكن ديناً لكان في خلاق الناس حسناً.

فأخلاق الرسول ﷺ كما قالت خديجة عنه. لقد أخبر رسول الله ﷺ خديجة بعد أن جاءه الوحي بما حدث له. فقال:

لقد خشيت على نفسي، فقالت: له كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

ولا شك أن ما عرف به محمد ﷺ من صدق، هو الدافع لما قالته خديجة دون أن تستقصى الدليل أو تتطلب البرهان والإثبات.

ويقول الإمام الغزالي في شأن القضاء على الشك تجاه شخص معين ما يلي: «فإن وقع لك الشك في شخص معين: إنه نبي أم لا؟ فلا يحصل اليقين إلاّ بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، أو التواتر والتسامع... فكذلك إذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والأخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب، وكيف صدق في قوله: «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم». وكيف صدق في قوله: «من أعان ظالماً سلطه الله عليه»، وكيف

صدق في قوله من أصبح وهمومه هم واحد (وهو التقوى) كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة. . .)[1].

هذا الصدق الذي اتصف به رسول الله ﷺ هو الذي يفسر لنا ما جنح إليه أبو بكر الصديق في تصديق ما عرضه الرسول ﷺ، في شأن الرسالة إذ صدقه لأول وهلة، لعلمه بصدقه وأمانته.

وعن جبير بن نفير (رضي الله عنه) قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت القرآن: «و خلق القرآن الاستقامة».

قال تعالى:

﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[2].

ومن الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ، ما قاله جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليه، حينما سأله النجاشي عن أمر دينه إذ روى: «أنه لما هاجر المسلمون بدينهم إلى الحبشة بسبب ما نالهم، من تعذيب أليم، أرسل القرشيون وفداً إلى النجاشي، فيه عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص، لردّ المهاجرين إلى مكة، ليعذبوهم من جديد، ولما التقى الوفد بالنجاشي قال عمرو بن العاص:

إنه قد لجأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعوه، لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم، لتردهم عليهم فهم أعلى بهم عيناً (أي أبصرهم) وأعلم بما عابوا عليهم، فلما سمع النجاشي كلامهم رأى، أن من الحكمة، ألا يسلم إليهم المهاجرين دون أن يسمع كلامهم، وحجتهم،

---

(1) نقلاً عن عبد الحليم محمود المرجع السابق ص: 200 وما بعدها.

(2) سورة هود، الآية: 112.

فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاؤوا قال لهم:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الملل؟

فكان الذي كلمة: جعفر بن أبي طالب فقال له:

أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان.

أمرنا بصدق الحديث، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة.

وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام (وعدد عليه أمور الإسلام) فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، ولن نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك.

ولما قرأ عليه صدراً من سورة مريم بكى النجاشي ثم قال: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ثم التفت إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فقال لهما: «انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما».

لقد علم النجاشي فور سماعه المبادئ الإسلامية.

إن هذه المبادئ حق، وإنها آيات بينات، لا يخفي صدقها على أصحاب

الفطرة السليمة، وعلم أن ما أتى به محمد صلوات الله وسلامة عليه. إنما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام»[1].

هذا ومما يدل أيضاً على صدق رسوله ﷺ وصدق رسالته، ما رواه الإمام البخاري عن حادثة استدلال «هرقل» على هذا الصدق، إذ قال:

«حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرق أُرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء. فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال:

أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي تزعم أنه نبي؟

فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً.

فقال: ادنوه مني. وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قال لهم: إني سائل هذا عن الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألني عنه، أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

---

(1) عبد الحليم محمود المرجع السابق ص: 206 وما بعدها.

قال: فمن كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه.

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

قال: لا.

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا! ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.

قال: ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة.

قال: فعل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم.

قلت: يقول اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت، إنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت: أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله قلت: رجل يأتي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك؟ قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟

فذكرت أنهم يزيدون.

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه.

فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب..

وسألتك: هل يغدر؟

فذكرت: أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بما يأمركم؟

فذكرت إنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين.

وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عند قدمه[1].

---

(1) عند الحليم محمود المرجع السابق ص: 217 وما بعدها.

4 ـ إثبات القرآن لرسالة محمد ﷺ:

لقد ذكر القرآن أن دعوة محمد ﷺ كانت استجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل اللذين كانا يدعوان الله وهما يرفعان القواعد من البيت:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1]. كما أن عيسى عليه السلام بشر بالرسول أحمد ﷺ الذي سيأتي بعده.

قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[2].

وقال تعالى معلناً أن محمداً ﷺ رسول الله.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾[3].

كما أن الله أعلن أن القرآن إنما أنزله على محمد ﷺ رحمة وذكرى للمؤمنين وتبياناً لكل شيء، وهذا دليل قاطع على صدق الرسالة وصدق رسول الله ﷺ.

قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4].

---

(1) سورة البقرة، الآية: 129.
(2) سورة الصف، الآية: 6.
(3) سورة الأحزاب، الآية: 40.
(4) سورة العنكبوت، الآية: 51.

وقال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وقال تعالى مخاطباً رسوله وواصفاً مهمته:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[2].

وخلاصة القول إن دلائل صدق رسول الله ﷺ وصدق رسالته ثابتة وقائمة كالشمس في رابعة النهار، لا ينكرها إلاّ كل مختال أثيم، ولا يجحدها إلاّ القوم الظالمون ولما كان القرآن كتاب الله قد أعلن أن محمداً ﷺ رسول الله، بهذا لا يمكن أن يقوم أي شك حول رسالته، فالرسول إذ دعا إلى رسالة الله صدقه المؤمنون إذا آمنوا بما أنزل عليه من عند الله وقد وصف سبحانه وتعالى المؤمنين فقال:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

سطور في حياة الرسول ﷺ ودعوته:

بعد أن علمنا مفهوم الإيمان وعرفنا الأنبياء والرسل وبينا أسس رسالاتهم وما أنزل عليهم، وعلمنا أن محمداً ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، يجدر بنا أن نلخّص في سطور حياة هذا الرسول العظيم محمد ﷺ ليكون القارئ على بينة ومعرفة في معرض معرفته بالأنبياء والرسل والإيمان بهم وأن يدرك من

---

(1) سورة النحل، الآية: 89.

(2) سورة الأحزاب، الآية: 45.

(3) سورة الفتح، الآية: 29.

خلال حياة الرسول ﷺ أثر جهاده في سبيل الدعوة لإقامة دولة الإسلام، ورفع رايتها في كافة أنحاء العالم، وهو الدين الحق القائم والمستمر إلى يوم القيامة. . .

إن محمداً النبي الأميّ، بلغ الرسالة، ونصح الأمة من خلال الدعوة إلى الدين الإسلامي، الذي يعني انقياد المؤمنين إلى الله واعتقادهم بربوبية الله ووحدانيته، وشعورهم بالتبعية لقوة عظمى هذه القوة هي المظهر الماثل في جميع معالم هذا الكون، بما يوحيه مظاهره وصوره والذي يطبع الناس بعقلية التبعية إلى الله وهو الشعور الأساسي لمفهوم الدين الإسلامي.

هذا المفهوم هو الذي قادهم وطبع عقولهم به، فأقام بهذا مفهوماً للدين يقوم على ما يحقق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة، وبه قامت مفاهيم أخلاقية، وسلوكية تعاملية، تصلح لكل الأمم في أنحاء العالم وذلك من خلال نظام سياسي واجتماعي واقتصادي، في إطار نظام انبثق عن العقيدة الإسلامية وأصول وفروع، بحيث صهرت به جميع الآراء المتناقضة والدخيلة وما فيها من تأثيرات روحية كانت سائدة في ذلك العصر، وقضى على كافة العناصر والأسس الجاهلية التي أفرزت آراء وعقائد وثنية، فاستطاع بذلك أن يذيب كل هذه الأفكار والصراعات المذهبية والقبلية، بما بشر به، وهي الدعوة الخلاقة للمجتمع الجديد، المجتمع الإسلامي الذي رائده معرفة الله، وطاعته واجتناب نواهيه، كل هذا كان بحماس ودأب لم يفتر، وعقيدة ثابتة لا تتزحزح، ولا تكل ولا تعرف الملل أو اليأس، والهدف تحقيق رسالة الله المنزلة التي ترمي إلى ما هو في صالح الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، هذه الرسالة حققها الرسول ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً، رسولاً مبشراً ونذيراً وداعياً ومعلماً كل هذا بنفسية متواضعة تنكر ذاتها وتصارع الباطل، وتقلب حياة القبائل الوثنية وأعرافها وتقاليدها الجاهلية رائده الاخلاق واعتصامه، بحبل الله وتعاليمه السامية، فاستطاع بهذا أن يصرع الباطل ويمحوه على الرغم من ولادته من مكة المركز

الأساسي لقيادة الأوثان، واصطناع الأصنام، وتمركز كبرياء الجاهلية، وتحكم الأغنياء في الفقراء، وأشراف المدينة في ضعفائها، واستمتاع هؤلاء الأشراف بميزات خاصة من سدانة الكعبة وفوائدها ومركزها الديني والقومي كل هذه المظاهر الطاغية التي رآها محمد ﷺ قابلها بما أوحى إليه سبحانه وتعالى حيث بدأت الرسالة بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، هذا الأمر بالقراءة إشارة إلى أن الدعوة، إنما هي دعوة ربانية منزلة من السماء، وما دامت هذه الدعوة من الله فهي دعوة تربوية عقائدية تامة محكمة كاملة في جميع أصولها وفروعها.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

هذه التربية الإلهية المصدر، ذات طابع شمولي، فهي تشتمل على العقيدة والأخلاق والتشريع هي التربية التي عناها القرآن بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[2]. فهي تربية الخالق الذي أحاط بكل شيء علماً وهي في الوقت ذاته تعني القيادة والتعليم والهداية وهي تربية مستمرة في كل زمان ومكان، هدفها الإنسان الذي هو هو، في كل زمان ومكان حيثما حل وأينما وجد، طالما أن خلقه واحد، وتركيبه واحد، والهدف من وجوده واحد.

هذه الدعوة حملها شخص عصامي أميّ، زاهد في الدنيا لا يطلب مالاً ولا جاهاً، ولا زعامة، ولا ملكاً، إنما غايته أن تقر الإنسانية جمعاء باسم ربها الواحد الأحد وتقيم حياتها على أساس من الدين والأخلاق والفضيلة والعلم، بمعنى أن تسلك في حياتها مسلك التربية الإلهية، هذه الدعوة، لم يطلب عليها أجراً «إن أجره إلاّ على الله» ولهذا فهو الصادق فيما يبشر، ولا يمكن أن ينسب إليه أي كذب أو نفاق أو افتراء، فالهداية غايته والإخلاص سبيله.

هذا الأمر إذاً بالقراءة بغيته تعميم العقيدة والتربية الإلهية والأخلاق والعلم.

---

(1) سورة هود، الآية: 1.

(2) سورة العلق، الآية: 1.

قال تعالى:

مخاطباً رسوله الأمين: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾. أي اقرأ، فهي دعوة آمره بالتعليم والتعلم، موجهة الناس أجمعين إلى الثقافة وإلى العلم، وإعمال الفكر، وإلى البحث والاستقصاء والتتبع، والنظر في خلق السموات والأرض، بما فيها من جبال، وبحار وعوالم، وما خلق فيها من كائنات، هذه السمة العلمية هي التي دعا إليها الله ورسوله وطلب التبشير بها والاستزادة من العلم بها (وقل رب زدني علماً).

هذه السمة إلى جانب سمة الإيمان هي التي تميز بين الناس، فالعالم مقدم على الجاهل، بقوله تعالى:

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، تلك هي الميزة المطلوب التحلّي بها، وهي ميزة العلم، فهو مفتاح الكون وما فيه من خيرات، ومنافع للناس مسخّرات بإذن الله، من ليل أو نهار وشمس وقمر وسماء، وأرض وجبال، وبحار، وأنهار وحيوان ونبات.

هذه الدعوة لأعمال العلم، بغيتها الاستفادة من معطياته، تفكيراً وتجربة، في كل ما يقتضيه مفهوم العلوم، ومدلوله وغايته، إذ العلم سيقود حتماً إلى العمل، لأن جميع هذه القوى الكونية مسخرات بإذن الله لخير البشرية جمعاء.

وهكذا نجد أن العلم مسخر لمعرفة الكون، وهذا ما يحض عليه الإسلام كي لا يقف الإنسان في الحياة عن طلب العلم وتتبعه، بل عليه أن يسعى نحوه، فهو بالتالي سعي نحو الخير.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2].

---

(1) سورة الزمر، الآية: 9.

(2) سورة النجم، الآية: 39 ـ 40.

وقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[1].

فالقراءة إذاً متجهة نحو معرفة الحقيقة وفهمها بالاتجاه إلى الله ابتغاء مرضاته، فالاتجاه نحو هذا المنتهى تسخير الكون وتذليله هذه الغاية هي سبيل الله.

فالدعوة إلى العلم إنما هي دعوة إلى السيطرة على العالم وعلى الطبيعة أي على المادة، كما أن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إنما هي دعوة إلى العبادة في أقوالك وأعمالك، فالعبادة لا تعني فقط الطاعة، وأعمال الحياة الروحية فقط، وتهذيبها وتطهيرها، بل يدخل في شمول العبادة أيضاً الجانب المادي، أي التتبع والاستقصاء، في العلوم، فالإسلام إذن يحض على العلم والعمل، ويحض على التربية وتهذيب الروح والاهتمام بالحياة الروحية، فالإسلام الذي دعا إليه رسول الله محمد ﷺ هو المنهج الصحيح، للحياة إنه منهج إسلامي يهدف إلى إقامة الحضارة الإسلامية التي هي الأساس لمناهج أوروبا الحضارية.

فدعوة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ هي دعوة إلى الخير والفضيلة لأن القراءة العلمية لا يمكن أن تكون متسمة بالشر، بل لا بد وأن يكون العلم خيراً، بل إنه بحد ذاته قربى إلى الله، وبالتالي فهي ضرب من ضروب العبادة، لأن إعمال الفكر هو عبادة بحد ذاته، والعلم يقتضي أن يكون مطواعاً للرحمة، وسبيلاً للهداية، وما الحضارة إلاّ وليدة العلم، فهي إذاً سعادة وإعمار، وليست شقاء وتدمير وعلى هذا حمل الرسول ﷺ مشعل الدعوة محمل الرسالة ودعا إليها هي دعوة إلى المعرفة الإشراقية ودعوة إلى التأمل، بأعمال البصر والسمع والقلب.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[2].

---

(1) سورة النجم، الآية: 42.

(2) سورة الإسراء، الآية: 36.

وهي دعوة أيضاً إلى العلم والتجربة، وهي مسؤولية البصر والسمع، وهذا هو الجانب المادي، أما القلب فهو الجانب الروحي، فأعمال القلب إنما يعني الإلهام الإشراقي والنور الإلهي، وذلك بالاستجابة إلى أحاسيس القلب ورقته لعلم الخير والتقوى والصلاح والتعاون على الخير وهذه من مضامين الدعوة، ومحتوياتها إذ الدعوة هي في الأصل رحمة للناس.

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهكذا أسست دعوة محمد ﷺ على الحق، والعقيدة، والتبعية لله، والإيمان باليوم الآخر، وعلى العلم، والعمل، وعلى الرحمة، والتوبة وعلى المسؤولية والثواب والعقاب، فقاوم بهذه الدعوة وقوتها، مواقع الشرك ومظانه، وحارب الجاهلية التي كانت تنكر القدرة الإلهية، وتعبد الأوثان وتعدد الآلهة، وتعبدها ، وهي لا تملك نفعاً ولا ضراً، فأقام مقام كل هذه العقائد الفاسدة العقيدة الحقة، الإيمان بالله مالك يوم الدين، واحد لا شريك له في سلطانه وقوته، خالق العالم يحيي ويميت وهو على شيء قدير.

كل هذه التعاليم كانت بوحي منزل من عند الله وكان رسول الله محمد ﷺ يتلو ما ينزل عليه، وينشره بين الناس، وكان الوحي الذي نشره محمد ﷺ في مكة تعاليم جديدة فيها كل معاني الدين الجيد، فيها التوحيد، فيها الصلاة، والصدقة، ومراقبة الخالق وعبادته سراً وعلناً بالقلب وبالجوارح. هذا الدين الذي أعلن أن المرء مساءل وأن الموت حق والبعث حق، وأنه لن يترك سدى.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

---

(1) سورة الأنبياء، الآية: 107.

(2) سورة الحجر، الآية: 92 ـ 93.

هذا الدين هو الذي ربى المهاجرين، وهم رجال الإسلام الحقيقيين وكانوا بالطبع قدوة للآخرين فيما بعد.

هذا الوحي بهذه الأسس والمعالم نزل على رسول الله متمماً ومكوناً من 114 سورة، وثلث هذه السور نزلت عليه في مكة، ثم هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولعلها المدينة الجديدة التي كان أهلها أكثر استعداداً لقبول هذا الدين، وقد آواه أهل المدينة وآزروه، وفي المدينة نزل الجزء الأكبر من القرآن، وظل الرسول محمد ﷺ مجاهداً وناشراً لواء الإسلام، بحيث برزت سمات الدولة والتنظيم وأضحت تظهر وتتسع وتنمو، وهكذا أخذ الإسلام فيها شكله النهائي، وظهرت مفاهيمه كما ظهر طابع النظام الاجتماعي والفقهي والسياسي، وأسس تنظيم الأموال والمواريث، وتوزيع الغنائم، وأخذت شكلاً ثابتاً، بحيث تعتبر بحق الأسس للتشريع المالي والاجتماعي، ففي المدينة استكمل الإسلام صورته، ورسمت خطوطه الرئيسية، وأبعاده لحياته ونموه، مما يدعونا إلى القول: إن الهجرة هي المرحلة التاريخية الأساسية في تكوين الإسلام الدين الحنيف.

هذه المرحلة كانت في الحقيقة مرحلة دفاع وهجوم، فقد تحولت الدعوة من أسلوب الموعظة إلى قتال المشركين بالسيف، محافظة على مركز الإسلام، وشعور المسلمين وحماية للرسالة، ومحافظة عليها، لإزاحة المعوقات عن طريقها، فقال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[1].

(1) سورة التوبة، الآية: 5.

وقال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1].

هذه المرحلة إذن تختلف عن المرحلة السابقة للدعوة التي اعتمدت الحكمة والموعظة التي أمر الله بها، وهو الأسلوب الأمثل في السلوكية للبدء بنشر الرسالة المحمدية.

قال تعالى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2].

ثم بعد أن تعززت الرسالة انتقلت الدعوة إلى الإعراض عن المشركين ثم انتقلت إلى مرحلة قتال المشركين وترصدهم في كل مكان، وهكذا اختلفت مراحل الدعوة للرسالة، تبعاً لتدرج قوة المسلمين، وتبعاً للخطر الذي يشكله المشركون على الدعوة الإسلامية وكان المنهج الفعال في هذه الرسالة هو الوحي.

وهكذا نجد أنه مهما يكن الأسلوب المتبع في الدعوة والمراحل التي مرت بها فإن القرآن في جميع مراحل سير الدعوة ونشرها كان الأساس، في بناء وتشييد صرح الدين الإسلامي، وهو المعجزة التي دلت على صدق رسالة محمد، هذه الرسالة الإلهية ترمي إلى الاعتقاد بالله والشهادة بأنه الواحد الأحد لا شريك له، والشهادة بأن محمداً رسول الله وبإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

ومما تجدر الإشارة إليه أن نشر الدين الإسلامي سواء في مرحلة الموعظة أو في مرحلة الجهاد في سبيل الله، لا يمكن أن يطبع نشر الإسلام بالطابع

(1) سورة البقرة، الآية: 190.

(2) سورة النحل، الآية: 125.

الحربي بحد السيف، لأن الآيات التي حضت على القتال لم تكن بقصد الحرب لهدف الحرب بل كان الغرض منها دفع العدوان عن الدين الإسلامي، وإزالة العوائق في نشر مبادئه.

هذه الدعوة لإزالة العوائق أمام نشر الإسلام، كان رائدها المحبة لله واتباع الرسول ﷺ، قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[1].

وهكذا كانت الرسالة الإلهية وهي الدين عقيدة وأخلاقاً وشريعة، وهي موجهة إلى البشر عامة، وهي دعوة عالمية إلى الجنس الإنساني بأسره، كما أنها نعمة أنعمها الله على عباده مما يقتضي حمده وشكره عليها:

قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[2].

فرسالة الإسلام هي رسالة الاستسلام لأوامر الله والدخول في النطاق التعبدي ابتعاداً عن الهوى، إنها رسالة الجهاد في سبيل الله من أجل الخير والصالح العام، كل ذلك بالاعتماد، على الله والإيمان بالحياة والممات من أجل الله.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[3].

(1) سورة آل عمران، الآية: 31.

(2) سورة الفاتحة، الآية: 2 ـ 7.

(3) سورة الأنعام، الآية: 162ـ 163.

هذه بعض الخطوط الأساسية لدعوة محمد ﷺ ورسالته الإلهية، فمن البديهي أن يكون حامل هذه الرسالة المقدسة الشاملة لنظام الإسلام ومبادئه واهباً نفسه لهذه الدعوة، لجعل الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، بأمر من الله سبحانه وتعالى. هذه الرسالة قد اصطفاه الله لها وأهله لما هو جدير به، لحمل هذه الرسالة القدسية العظيمة، هذا ما يقتضينا أن نتعرض في سطور إلى حياة محمد الرسول العظيم ﷺ.

حياة محمد ﷺ:

محمد ﷺ ختمت به الرسالات كما ختم الوحي بالقرآن بتمام هذه الرسالة ومحمد بن (عبد الله)، بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. .إلى أن ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام. وقد روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم».

وقد ولد محمد ﷺ يوم الاثنين من عام (570) ميلادية. وقد أرضعته أمه آمنة بنت وهب و (ثويبة الأسلمية) وأم (أيمن) و(خولة بنت المنذر) و(حليمة السعدية) التي كانت أكثرهن إرضاعاً له.

هذا وقد توفي أبوه (عبد الله) قبل ولادته، فنشأ إذاً على اليتم وقساوة العيش وخشونته، وعندما بلغ أربع سنين من عمره أرجعته مرضته (حليمة السعدية) إلى أمه في مكة عند جده عبد المطلب، ولما بلغ من العمر ست سنوات أخذته أمه آمنة إلى المدينة لزيارة أخوال أبيه من بني النجار، فماتت في (الأبواء) وهي راجعة إلى مكة، وقد بقي الرسول في كفالة جدّه عبد المطلب بعد وفاة أمه «ألم يجدك يتيماً فآوى»، وبعد سنين، توفي جده عبد المطلب فكفله

عمه أبو طالب وكان ابن ثمان سنوات، ثم بقي رسول الله ﷺ في حفظ الله ورعايته، فنشأه وأدبه على الكمال، إذ ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».

هذا وقد تزوج محمد ﷺ بخديجة عندما بلغ خمساً وعشرين سنة، ولم يعدد الزوجات إلاّ بعد وفاتها، وكان ذلك التعدد لحكمة تعليمية واجتماعية وسياسية. وعندما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة أوحى الله إليه، وذلك في عام 610 ميلادية وبعد مرور ثلاث سنوات من نبوته أمره الله بتبليغ ما أنزل إليه فراح يدعو الناس إلى الرسالة (بالحكمة والموعظة الحسنة)، وكانت هذه الدعوة قد بدأت في مكة وما حولها إلى أن أذن الله له بالهجرة.

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وهي مركز دعوته والعاصمة المدينية للدولة الإسلامية ولم تكن هذه الهجرة فراراً أو خوفاً من زحف أو هجوم، أي كان ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى مدبر كل شيء.

وهكذا كانت هذه الهجرة مبعث انتشار الدعوة في مشارق الأرض ومغاربها، فانتشر بذلك الإسلام في العالم وأضحت كلمة الله هي العليا. هذا وقد أكمل الله دين الإسلام وأتم نعمته وبلغ رسول الله رسالة ربه ونصره الله بها ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

قال تعالى:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1].

ويبدو أن الملحمة المحمدية قد أخذت أوجها وقد غادر الرسول المدينة معلناً رغبته في الحج وقد صحبه آلاف الحجاج القادمين من أطراف الجزيرة إلى

(1) سورة النصر، الآية: 1 ـ 3.

مكة، وهناك في عرفة ألقى خطبة الوداع وضمنها قائلاً «ألا هل بلغت» فقالت الجموع: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت، في تلك اللحظة هبط الوحي ليتمم الرسالة فبلغ قوله تعالى:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1].

ثم عاد رسول الله إلى المدينة، حيث وافاه المرض هناك ثم وافاه الأجل فاختاره الله إلى جواره، يوم الاثنين في السنة 11 من الهجرة وكانت كلمته الأخيرة وهو في حجرة زوجته «اللهم إلى الرفيق الأعلى»[2].

وهكذا ختمت الرسالة المحمدية التي أنارت العالم ونشرت دين الإسلام وهو الدين الدائم إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

الإيمان بالرسل:

بينا فيما سبق مفهوم النبوة والأنبياء والرسالة والرسل كما بينا أن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، جاء يدعو الناس عامة إلى دين الله وإن هذه الدعوة التي دعا إليها إنما هي خاتمة الدعوات نزلت عليه بالوحي، كما وبينا مفهوم الوحي بالأدلة القرآنية، إذ القرآن هو أساس الإيمان، فمن يؤمن بالله يؤمن بالقرآن المنزل على رسوله، ومن يؤمن بالقرآن، وجب عليه أن يؤمن بكل ما جاء فيه وإنه كلام منزل من رب العالمين، ومن مقتضى الإيمان بالقرآن، الإيمان بملائكته وكتبه ورسله... وإن الإيمان بالرسل هو التصديق بأن جميع رسل الله وأنبيائه يهدفون إلى الإيمان بالله، ونشر دعوته فمن صدّق واحداً منهم، وجب عليه تصديقهم جميعاً وتصديق معجزاتهم التي أيدهم الله بها برهاناً على صدق دعوتهم، ومن كذبها فقد كذبهم جميعاً، يجب الإيمان بهم جميعاً، فمن آمن ببعضهم ولم يؤمن بالبعض الآخر كان كافراً[3].

---

(1) سورة المائدة، الآية: 3.

(2) رواه البخاري.

(3) أبو الأعلى المودودي، مبادئ الإسلام ص: 78 وما بعدها.

هذا وإن مقتضى الإيمان بالأنبياء والرسل، بتصديق ما أورده القرآن يجب أن نعرف الأمور التالية:

1 ـ أول نبي آدم وآخر نبي محمد ﷺ:

إن أول نبي جاء على الخليقة هو آدم أبو البشر عليه السلام مؤيداً بالوحي ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

هذا وقد ذكر القرآن قصته في سورة البقرة والأعراف والكهف وطه، فآدم عليه السلام نبي وقد ثبت بالقرآن بصريح نصوصه بما أخبرنا الله عن قصة خلقه، وجعله خليفة في الأرض، وإسكانه الجنة، ثم إنزاله إلى الأرض،

قال تعالى:

﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2].

فالله سبحانه وتعالى إذ أنزل آدم إلى الأرض كلفه بالهدى الذي أرسله إليه وإلى ذريته،

قال تعالى:

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3].

فالإيمان إذاً بأول نبي يقتضي أيضاً الإيمان بآخر نبي وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وهذا ثابت بصريح نص الآية:

---

(1) سورة البقرة، الآية: 37.
(2) سورة البقرة، الآية: 35 ـ 36.
(3) سورة البقرة، الآية: 38.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾(1).

فالإيمان بالرسل من أولهم إلى آخرهم، إنما هو المطلوب من معنى الإيمان المطلق والاعتقاد والتصديق يهم على أنهم أنبياء ورسل، وهذا لا يناقض الإيمان بخاتم الأنبياء مع الإيمان بنزول عيسى عليه السلام، قرب قيام الساعة التي هي من أمور الغيبيات الثابتة في القرآن.

قال تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(2).

فالثابت إذن أن المسيح عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وإن الله رفعه إلى السماء وإنه حي باق وإنه سينزل قبل يوم القيامة.

قال تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(3).

فنزول عيسى إلى الأرض ثابت أيضاً بدليل واضح باعتبار أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلاّ ويؤمن بعيسى عليه السلام بعد نزوله.

(1) سورة الأحزاب، الآية: 40.
(2) سورة النساء، الآية: 157 ـ 158.
(3) سورة الزخرف، الآية: 57 ـ 61.

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[1].

وهذا رد على اليهود الذين زعموا أنهم قتلوه وصلبوه فأخبرنا الله بكذبهم ونفي ما زعموه. فالإيمان بالقرآن بما ورد فيه يقتضي الإيمان بالرسل وبما حدّث عنهم.

2 ـ الأنبياء الذين ذكرهم القرآن:

ذكر القرآن عدداً من أسماء الأنبياء والمرسلين، وهم خمسة وعشرون وهؤلاء يقتضي الإيمان بهم وبرسالاتهم وهم:

آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، شعيب، أيوب، ذو الكفل، موسى، هارون، سليمان، داود، الياس، اليسع، يونس، زكريا، يحيى، عيسى عليهم الصلاة والسلام وآخرهم محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

هؤلاء الذين ذكرهم القرآن تفصيلاً وهناك أنبياء لم يقصصهم علينا، ومع ذلك يتوجب الإيمان بأنهم رسل أرسلهم الله تعالى إلى عباده، ليقوموا بنشر دعوته، وقد أرسلوا إلى مختلف الأمم وفي مختلف أصقاع الأرض فقد يكون بعضهم جاء إلى الهند، وإيران، أو مصر، أو إفريقيا، أو أوروبا أو سائر نواحي الأرض وأرجائها. . . ولا يسعنا بالطبع أن نحدد أمكنتهم ما دمنا لم نعلم عنهم شيئاً، على أن عدم علمنا هذا لا يخولنا أيضاً أن نذم واحداً منهم، وإن كان القرآن لم يتعرض بالتفصيل لهم، أو لم يقص علينا شيئاً من أخبارهم، إنما أخبرنا على أن هناك رسلاً وأنبياء.

---

(1) سورة النساء، الآية: 159.

قال تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[1].

هؤلاء الرسل والأنبياء أرسلوا في كل أمة أو جماعة، إذ ما من أمة خلت من نذير،

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[2].

هذا وإن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يسائل أحداً أو أمة من الأمم قبل أن يبعث رسولاً.

قال تعالى:

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4].

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[5].

---

(1) سورة النساء، الآية: 164.
(2) سورة فاطر، الآية: 24.
(3) سورة النساء، الآية: 165.
(4) سورة الإسراء، الآية: 15.
(5) سورة القصص، الآية: 59.

فكل ما هو مطلوب من شمول الإيمان بالرسل والأنبياء أن لا نفرق بينهم من ناحية صدقهم في دعوتهم، وأنهم مرسلون من عند الله يدعون إلى سبيل الله واتباع صراطه المستقيم.

3 ـ خصوصية دعوة الرسل وعموميتها:

إن دعوة الرسل كانت خاصة، فكل رسول أرسل إلى قومه أو أمته يدعوهم إلى ما أنزله الله، ولكن هؤلاء الأنبياء أرسلوا إلى أمم خاصة ولأزمنة محدودة. أما رسالة محمد ﷺ فهي تتميز عن باقي الرسالات باعتبارها رسالة عامة وهي غير محددة بأمة معينة، بل هي للبشرية جمعاء على اختلاف عروق الناس وأجناسهم وهي رسالة دائمة بمبادئها وأحكامها وإن الإيمان بها هو الخير لهؤلاء الناس.

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾[1].

هذا ومما يميز عمومية رسالة محمد ﷺ أنها باقية إلى يوم القيامة، بينما نلاحظ أن الرسالات الخاصة التي نزلت على أمم خاصة قد انقرضت أوانها لم تعد محفوظة بحقيقتها التي نزلت عليها، وقد دخل عليها الفساد والأساطير والإسرائيليات، بحيث لم تعد أيضاً محل ثقة، فضلاً عن أن سيرة الأنبياء القدامى أيضاً معروفة بالجزء الذي أخبرنا به القرآن، في حين أن سيرة محمد ﷺ سيرة واضحة باقية فتعاليمه قائمة وأعماله وأخلاقه ماثلة في سيرته، مما لا يرقى إليها الشك، إذ إن سيرته مدونة ومحفوظة، فضلاً عما ورد في القرآن الكريم من أخباره وسيرته.

هكذا نجد أن حياة محمد ﷺ ماثلة أمامنا وهي حياة حية ثرية بالأحداث

---

(1) سورة النساء، الآية: 170.

والوقائع والمواقف العظيمة وهي مدونة وخاصة ما ورد منها في القرآن الكريم فإنها محفوظة ما كر الزمان وتعاقب الحدثان. . .

4 ـ عدم التفرقة بين الأنبياء:

إن الأنبياء والمرسلين الذين خصهم الله برسالاته، لا يجوز التفرقة بينهم في ماهية النبوة أو الرسالة، فكلهم أنبياء أو رسل وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾(1).

فالنبوة حقيقة واحدة لا تختلف بين نبي وآخر تتضمن صلة الله بالنبي أما الرسول، فتتضمن صلة الرسول بالبشر، باعتباره مكلفاً بالتبليغ، وإذا كان النبي أو الرسول هو إنسان أوحي إليه بواسطة جبريل ليبلغ الناس أو أمة ما بأمر من الله، فإن مهام النبوة والرسالة هذه، لا تختلف باختلاف الرسول أو النبي، من هذا المنطلق لا يمكن التفريق في مدلول مهمتهم ومعناها أو تفضيل مهمة على أخرى. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذا فقال:

«لا تخيروني على موسى ولا تفضلوني على الأنبياء».

وإذا كان الأمر على هذا، لا يسوغ معه التفريق بين الأنبياء أو المرسلين، على أن هذا لا يمنع أن يكون أحد الرسل أو الأنبياء ذو مقام أو فضل كبير أو منزلة عالية عند الله.

هذا وقد أجمع العلماء قاطبة على أن منزلة محمد ﷺ أفضل المنازل عند الله، بل أفضل الخلق على الإطلاق، ولعل مرد ذلك عمومية بعثة محمد ﷺ

---

(1) سورة البقرة، الآية: 285.

والتي أخرج بها خير أمة للناس، وفي هذا السبيل يقول الله عز وجل واصفاً الأمة الإسلامية:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

ومرد هذا الإخراج الطيب عظمة الرسالة وشمول مبادئها وأحكامها وأهدافها، وجهاد الرسول في سبيل تحقيق هذه الأهداف فهو أكرم الأولين والآخرين على الله من هذا المنطلق نجد أن مقام الرسل عند الله مفضل ودرجات الرسل عنده مختلفة أيضاً.

قال تعالى:

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾[2].

5 ـ في اختلاف تعاليم الأنبياء:

إن الأنبياء والمرسيلن الذين جاؤوا قبل محمد ﷺ لم تكن تعاليمهم كاملة، إذ ما من نبي إلاّ وجاءته تعاليم لتكمل تعاليم من سبقه من الأنبياء في أحكامها وطرق الإرشاد والدعوة إليها، ولعل مرد ذلك اختلاف حالات الأمم النفسية، واختلاف تقاليدهم وعاداتهم، ولعل هذا متفق مع أصول التطور وسنن التدرج في الحياة، فضلاً عن اختلاف عوامل الرقي ومفاهيم الخير والصلاح، من هذا المنطلق نجد أن تعاليم كل نبي تجيء مكملة ومتممة لمن سبقه، لا سيما إذا اعترى الشريعة السابقة عوامل التغيير أو التحريف لحقائقها، وهذا بلا شك حاصل مع تطور الزمن وامتداده إلا إذا كان الله قد حفظ هذه الشريعة وحماها بعنايته، كما فعل في شريعة محمد ﷺ.

---

(1) سورة آل عمران، الآية: 110.

(2) سورة البقرة، الآية: 253.

قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

هذا ولما كانت تعاليم الشريعة الإسلامية كاملة ناضجة، فمن البديهي أن لا نحتاج إلى الشرائع السابقة غير الكاملة، لهذا نجد أن ما من عقل يقبل باتباع الشريعة الناقصة، إزاء الشريعة الكاملة، ولا شك أن شريعة محمد ﷺ شريعة مستوعبة لكافة الشرائع السماوية التي سبقتها، لهذا كان لا بد لجميع الأمم من أن تؤمن بالشريعة الغراء التي حملها رسول الله ﷺ.

6 ـ شريعة محمد ﷺ نسخت شرائع الأنبياء السابقة:

إن شريعة محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ناسخة لجميع شرائع الأنبياء السابقة، إذ إن الإيمان بشريعة محمد ﷺ هو إيمان بكل خير في تعاليم الأنبياء السابقين وهي الشريعة الكاملة والتامة، والمراد هنا بالشريعة العبادات والمعاملات المختلفة.

أما الرسالة المحمدية فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

7 ـ إن محمدا ﷺ رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين:

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تقوم على أسس جوهرية لا تصح إلاّ بها، وهي الإيمان بالله وبملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، فإن أي ركن من أركان هذا الإيمان لا تصح العقيدة إلاً به، ومن جحد أي ركن منها كان كافراً.

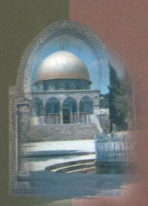
(1) سورة الحجر، الآية: 9.

خاتمـــة

بحثنا فيما سبق في كتاب خاص بالعقيدة أركانها الأساسية، والإيمان بالله وملائكته وكتبه، وخصصنا هذا الكتاب للإيمان بالأنبياء والرسل والنبوة والوحي. وقد استعرضنا في المقدمة العقل والهداية من العناصر الأساسية في الإيمان بالرسل وبينا أي العنصرين أهم العقل أم الهداية؟ وخلصنا إلى أن الهداية هي الأساس لأن العقل وحده غير كاف لمعرفة الحقيقة لأن ما يراه أحد حقاً قد يراه الآخر باطلاً. ثم انتقلنا إلى بحث واستقصاء ظاهرة النبوة وإن هذه الظاهرة لا بد لها من عناصر أساسية وأهمها العامل النفسي والعامل الموضوعي وشرحنا هذين العاملين ثم بحثنا خصائص النبوة ومزاياها مركزين على أهم خصائصها وهي الخاصية الربانية والخاصية الروحية. وخاصية تزاوج الهدف الديني والدنيوي، فهي دعوة إلى الدين والدنيا بكل بساطة ووضوح، وخاصية الوجدانية التي تتفق بها جميع دعوات الرسل والأنبياء والمراجع، ثم بينا المحور الذي تقوم عليه الرسالة وهي التبليغ، هذا والرسالة جوهرها قيام علاقة وصلة بين الله والناس، ثم انتقلنا إلى الصفات الواجب توفرها في الأنبياء والرسل، وما تقتضيه هذه الصفات من فطنة وقوة حجة، وصدق، واستقامة وأمانة، وعصمة سواء كانت قبل النبوة أو بعدها بالنسبة لجميع الأنبياء والرسل، ابتداءً من نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ثم استقصينا الرسالة في مضمونها وفحواها، وبينا أن الرسالة لا بدّ لها من وحي وبهذا تعرضنا إلى دراسة الوحي ومدلوله ومفاهيمه وأنواعه، تبعاً للمفاهيم العلمية، والشرعية ثم فصلنا في مضمونه وخصائصه وخاصة بالنسبة لمحمد ﷺ سواء بالنسبة لماهيته، أو بالنسبة لشخصية من تلقى الوحي، كما بينا مكان نزول الوحي وزمانه وأثره على شخصية الرسول محمد ﷺ.

فهرس الكتاب



الإيمان بالأنبياء

والرسل والنبوة والوحي



ISBN 9959-28-052-7



WORLD ISLAMIC CALL SOCIETY
Association Mondiale de L'Appel Islamique